سلسلة المعارف الإسلامية

(٥٠)

في مقارنة الأديان

نظرة سريعة في التوراة والانجيل والقرآن

الدكتور صائب عبدالحميد

تحظى إصدارات المركز

بالمتابعة والتقويم والإشراف العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين ، وبعد ...

يعني علم مقارنة الأديان بدراسة نقاط الاتفاق والافتراق ، التشابه والاختلاف ، بين مضامين الأديان السماوية وتعاليمها ،ودراسة الواقع التاريخي والاجتماعي كل منها وما قد يكون أضفاه عليها من خصوصيات ، ربما يكون من أبرزها لغة الديانة وأسلوبها في الخطاب ومدى اتساع وشمول أحكامها التشريعية.

وليس من شك في أن الديانات السماوية تلتقي في أحكامها وجوهرها في وحدانية مصدرها الاصل ، فهي رسالات إلهية ، موحاة بواسطة الوحي ، إلى نبي اختاره الله تعالى في زمانه وبيئته ، وقد يكون مبعوثاً إلى الناس عامّة منذ زمنه وحتى مجيء رسالة عامة لاحقة ، وبهذا تمتاز رسالة الاسلام بكونها خاتمة الرسالات السماوية إلى البشر.

وكما يمكن أن تأتي الدراسات المقارنة شمالة لكل ما تضمنته الأديان من أحكام تشريعية وآداب إجتماعية ، فانها يمكن أن تكون مقصورة على الخطوط العريضة والمعالم الاساسية التي ميزت كل واحدة من الديانات من خلال الرجوع إلى الكتاب الأصلي لكل منها. وتمتاز الديانات السماوية الثلاث الكبرى ـ الاسلام والمسيحية واليهودية ـ باحتفاظها بالكتب الاصلية التي تدين بها ، وتدعي نسبتها إلى الوحي الإلهي ، وهي القرآن والإنجيل والتوراة. فإذا كانت هناك فوارق جوهرية ظاهرة في بعض ما تضمنته هذه الكتب من المعالم الاساسية للديانة ، أو القضايا التي تدعم انتسابها إلى الوحي ، فإن المقارنة العامة ستختص بهذه النواحي ، دون الدخول

فـي التفاصـيل التشـريعية ، والظـروف المحيطـة بالتشـريعات ، المتشـابهة أو المختلفـة ، فـي كل ديانة.

وعلـى هـذا الصـعيد فـإن أوجـه المقارنـة بـين الـديانات الكبـرى الـثلاث متـوافرة بوضـوح ، الامـر الـذي يقـود البحـث إلـى مـا هـو جـوهري فـي ردّ أو تأييـد دعـوى الانتسـاب التـام إلـى الـوحي ، مـن بحـث فـي تـواريخ تـدوين هـذه الكتـب ، وملابسـاتها ، والبحـث فـي مضـامينها التـي تؤيـد أو تنفـي إمكـان نسـبتها إلـى الـوحي ،كالبحـث فـي مطابقـة هـذه المضـامين للمبـادىء الاساسـية فـي الأديـان والتـي علـى رأسـها « التوحيـد » ، أو مطابقتهـا للوقـائع الثابتـة تاريخيـاً ، أو مطابقتهـا للمعطيـات العلميـة الأكيـدة ، فهـذه المعـايير الثلاثـة هـي مـوازين حقيقيـة ، تـؤدي إلـى نتـائج حاسـمة فـي معرفـة إمكـان أو عـدم إمكـان نسـبة المعلومـات المتعلقـة بهـا إلـى الـوحي ، بـل هـي مـوازين حاسـمة فـي تحقيـق ثمـرة أكثـر أهميـة ، وهـي القطـع بصـدور هـذه المعلومـات عـن الـوحي وحـده وعـدم إمكـان صـدوره من غيره.

فمـا خـالف أصـل التوحيـد أو خـالف الصـفات الخاصـة بالـذات الالهيـة ، لا يمكـن صـدوره عـن الله تعـالى ، الإلـه الواحـد ، الخـالق ، الـذي وصـف نفسـه ـ جـل جلالـه ـ بتلـك الصفات.

ومـا جـاء مناقضـاً لأوليـات الآداب التـي ينبغـي أن يتحلـى بهـا نبـيّ مختـار مـن الله تعـالى لهدايـة البشـر وتـزكيتهم ، هـو الآخـر لا يمكـن نسـبته إلـى الـوحي ، ولا يمكـن أن يكـون مـن بلاغـات الانبيـاء لأقـوامهم. وكـذلك فـإن المعلومـات التـي لاتنسـجهم مـع الثوابـت التا ريخيـة لا يمكـن أن تكـون صـادقة فـي انتسـابها إلـى الـوحي الصـادر عـن إلـه

عالم ، محيط ، يدعو عباده إلى طاعته والاذعان لقدرته.

ومن ناحية أخرى فإن أنواعاً خاصة من العلوم والمعارف التي لم يتيسر لأهل زمان الوحي والنبوة المعرفة بها بشكل من الأشكال ، فإن ورودها بوضوح في نصوص هذا الكتاب أو ذاك سيدعو إلى الجزم بأنها معارف إلهية موحاة ، إذا لا يستطيع نبي أو حكيم أو عبقري أن يأتي بها على هذه القدر من الوضوح في حدود الامكانات البشرية المتاحة. فهي بلا ريب من الشواهد الأكيدة على صدق دعوى النبوة وصدق انتساب نصوصها إلى الوحي.

ولعل أهم المصادر الأساسية التي تعود إليها مثل هذه الفروقات في الكتب الثلاث هو تاريخ تدوين هذه الكتب ، وطبيعة التدوين. فإذا كان من اليسير جداً إثبات تدوين القرآن الكريم في حياة النبي محمد ﷺ وبإشرافه المستمر ، وتوفر الشروط الكافية لحفظ نصوصه ومفرداته ، فإن لهذا البحث مع التوراة والإنجيل مساراً آخر ، تثبت فيه الدراسات المختصة ملابسات كثيرة ، كفيلة بتفسير أوجه الاختلاف والاضطراب في بعض المعلومات الواردة فيها ، والتي لاتستقيم مع بعض المعايير الاساسية التي ينبغي أن تصدق كل ما يتضمنه كتاب ينتسب إلى الوحي ، من معارف ومقولات وأحكام.

وفي هذه الدراسة المقتضبة ، والمستفادة في معظمها من دراسات متخصصة أشار إليها الباحث ، ستكون هذه المعايير الأساسية هي محور البحث في خلاصة المعالم الأساسية للديانات التي تضمنتها الكتب الثلاثة ؛ التوراة ، والإنجيل ، والقرآن.

مع الالفات إلى أن هذا البحث يأتي في دائرة الدفاع عن الاسلام والقرآن وخاتم

الأنبياء ﷺ إزاء دعوات قديمة ، متجددة ، صنعتها الروح العنصرية العدوانية ، وصاغتها في أحكام مجحفة ، أنشأت عليها أجيالاً ، وأسست عليها ثقافات ، لعبت دورها في الدوان الغربي والصهيوني الدائم ضد الاسلام والمسلمين.

ثم التأكيد على احترام الدعوات المضادة التي تبناها بعض رجال الكنيسة والفكر المسيحي الأوربي أخيراً ، للاعتراف بالروح العدوانية ضد الاسلام ونبي الاسلام ، والعودة إلى الذات للتخلي عن الصور البالية التي ورثها الماضي ، والاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب المسيحي بحق المسلمين. في محاولة منهم للاستجابة إلى دعوات الحوار بين الأديان ، والتي لا تقوم إلّا على أساس الاحترام المتبادل ، وعلى أساس الموضوعية في البحث والتفهيم واستبعاد الأحكام المسبقة التي لم يكن لها غير العصبية العدوانية منشأً.

راجين أن يكون هذا الكتاب قد استوفى أغراضه في حدود المحاور التي تناولها ، مذكرين بالحديث المروي عن النبي ﷺ في وصف طبيعة التكامل بين رسالات السماء الحقة ومهمات الأنبياء ، إذ يقول ﷺ : « وإنّما مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلوها ويعجبون بها ويقول : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ».

والحمد لله رب العالمين

مركز الرسالة

المُقدَّمةُ

يحتل علم مقارنة الأديان أهمية كبيرة في بعديه التاريخي والعقائدي ، إذ يندرج في اطار العلمين ؛ علم التاريخ ، وعلم الالهيات (العقائد) ، وعلى الصعيدين يحظىٰ بأهميته الخاصة. فإذا كان اندراجه في علوم الالهيات واضحاً ، كون الأديان تتألف أساساً من جملة من العقائد التي تدور حولها المباحث المعروفة بعلم الكلام ، فإن البعد التاريخي فيه سيبقىٰ أساسياً هو الآخر ، لما تحتله المعرفة بتاريخ كل دين من الأديان من أهمية كبيرة في معرفة الدين نفسه ، بدونها لاتتجاوز المعرفة بالدين نفسه حدود المعارف الساذجة التي تحصل بالتلقين والمتابعة والتقليد ، ولاتسمىٰ معارف إلا تجوزاً ، وإن دخلت تحت عنوان ثقافة الشعوب والامم ، والتاريخ وحده هو الذي يمنح هذه الثقافة ، أو التعاليم المتلقاة ، عمقاً وقيمة تستحق بهما أن تدخل في دائرة المعارف.

والأديان السماوية الثلاثة ؛ اليهودية ، والمسيحية ، والاسلام ، بحسب ترتيبها التاريخي ، هي الأديان الكبرى التي تعززت بكتب سماوية شملت كل ما تستوعبه هذه الأديان من عقائد وشرائع وأخلاق ، إضافة إلى هذا فهي الأديان التي يدين بها أكثر من ثلاثة أرباع البشر ، عبر قرون عديدة ، مع ملاحظة القلة النسبية لأتباع الديانة اليهودية قياساً باتباع الديانتين الاخريين ؛ المسيحية والاسلام.

وقد بقيت الكتب السماوية الثلاثة لهذه الديانات الثلاثة : التوراة ،

والانجيل ، والقرآن ، على الترتيب التاريخي نفسه ، كتباً مقدسة لايرقى إلى قداستها شيء عند أتباعها ، فهي دستور الديانة الكامل ، ورمزها الأوّل ، ومحور تكونها الاساس. وعلى مدى القرون حظي كل واحد من هذه الكتب الثلاثة باهتمام بالغ ، بالدرجة الاولى من أتباعه المتدينين برسالته ، تفسيراً وشرحاً وتحليلاً وترجمة ، حتى أصبحت مكتبة القرآن الكريم وحده ، نموذجاً ، تضم عشرات الآلاف من المجلدات في مجالات الدراسات القرآنية المتعددة ، إلى جانب هذا فإن دراسات أُخرى نقدية ومقارنة قد عُنيت بهذه الكتب الكبرى ، لاسيّما في القرن الاخير المنصرم ، حيث اشتد الاحتكاك بين أصحاب الاديان مع رسوخ القناعة بثبات هذه الأديان وعمق تأثيرها في نفوس أتباعها ، ثم ساعد على ذلك تطور مناهج البحث ، فتجاوزت الدراسات النقدية والمقارنة الحديثة مجموع المواقف المجزءة والمفرقة ، التي تناثرت في كتب الكثير من المتقدمين ، لتنحىٰ منحاً شمولي في القراءة والنقد ، وإن جانَب كثير منها الموضوعية تحت ضغط الميول الشخصية والدوافع المسبقة التي تحول دون الحيادية الايجابية ، ودون الروح العلمية في القراءة والنقد.

وكتابنا الصغير هذا ليس هو جهد جديد في مشروع دراسة مقارنة للكتب السماوية الثلاثة ، بل هو حصيلة لبعضٍ من تلك الدراسات المقارنة التي توفرت على شروط الموضوعية ، وتناولها مختصون توفروا على إحاطة حقيقية بها ، تاريخاً وعقائد ، فقدموا مواد تميزت بالجدّة والعمق والدقة في سائر مباحثها.

ونظراً لاهمية هذا الموضوع ، والحاجة الجادة لنشر ثقافة هذا النوع من

الدراسات المقارنة بين الناس ، ولتنوّع هذه المصادر في مباحثها ، واتجاهات أصحابها ، اخترنا أن نضع بين يدي القارئ خلاصة الخلاصة مما توصل إليه هؤلاء الباحثون ، بعد إعادة تنظيم وتنسيق المباحث لكي تنتظم في كتاب صغير كهذا ، تضمن ثلاثة فصول ، اختص كل منها بواحد من الكتب الثلاثة ، واستوعب الاخير منها بعض أوجه المقارنة ، إضافة إلى ما شكلته مباحثه من مادة مقارنة وافية.

وقد اعتمدنا في الفصل الأول دراسة الشيخ محمد جواد البلاغي والتي أعدها باسلوب حواري في كتابه المفصل « الرحلة المدرسية » ، وفي الفصل الثاني ، مع الانجيل ، اعتمدنا دراستين ، إحداهما ، وهي الاوسع ، دراسة محقق وباحث وعالم بالاديان ، مسيحي الديانة ، هو الدكتور موريس بوكاي ، في كتابه القيم « القرآن والتوراة والانجيل والعلم ـــ دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ». والثاني لباحثة من أصل مسيحي قرأت الاناجيل ، وقرأت القرآن فانتقلت إلى الاسلام وكتبت حصيلة ملاحظاتها في كتاب بعنوان « نظرة عن قرب في المسيحية ». وفي الفصل الثالث احتجنا إلى كتابة المبحث الأول لعدم استيفائه جيدا في هذه المصادر الثلاثة ، ثمّ عدنا إلى موريس بوكاي بالدرجة الاولىٰ في المبحث الثاني وبعض الثالث.

راجين أن نكون قد وفقنا في هذا العمل ، والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الفصل الأوّل

معالم أساسية في التوراة

المبحث الأول : من صور الوثنية في التوراة

١ . اليوم السابع :

في شأن الله جل جلاله وخلقه السماوات والأرض ، تقول التوراة : «استراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدّسه ، لأنه استراح فيه من جميع عمله الذي عمل » ! [١]

ولا يخفى ما في هذا التعبير من جفوة ، إن لم يكن سوء اعتقاد ، فكيف ينسب إلى الله التعب ليكون محتاجاً إلى الاستراحة ؟

وفي القرآن الكريم تجد أجمل ما ينقض هذا الكلام ، وينزه الله تعالىٰ من كل دلالاته : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [٢].

فلم يكن الله تعالىٰ بعد خلق السماوات والأرض بحاجة إلى الاستراحة.

لقد أدركت « جمعية كتاب الهداية » المطبوع باشراف المرسلين

---

(١) سفر التكوين ، الفصل ٢ ، العدد ٢ و ٣.

(٢) سورة الأحقاف : ٤٦ / ٣٣.

الأمريكان ما في هذا النصّ من اشكاليات ، فكتبت تقول : « إن الله لم يقل وبارك الله اليوم السابع وقدّسه ... » ! [١]

٢ . شجرة الجنّة :

إن حاصل كلام التوراة من قصة آدم والشجرة الممنوعة في الجنة ينطوي على غرائب وأمور منكرة ، ففيها : « إن الله جعل آدم في جنة عدن وقال له : من جميع شجر الجنة تأكل ، وأما شجرة معرفة الحسن والقبيح فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت... ثم خلق الله من آدم امرأته وكانا عريانين وهما لا يخجلان.. وكانت الحية أَحْيَل حيوانات البرية ، فقالت لحواء : أحقاً قال الله لا تأكلان من كل شجر الجنّة ؟ [٢]

فقالت حواء : من شجر الجنة نأكل ، أما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا.

فقالت الحية للمرأة : لا تموتان ، بل إن الله عالم انه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارف في الحَسن والقبيح !

فلما أكلا منه انفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانان ، فصنعا لأنفسهما مآزر ! » [٣]

وهنا أكثر من رؤية منكرة عصية على التبرير :

ـ فكيف يقول الله : انكما إن أكلتما من هذه الشجرة تموتا من يومكما ،

---

(١) جمعية كتاب الهداية ٤ : ١٧٤.

(٢) سفر التكوين ، العدد ٨ ، فصل ٣.

(٣) سفر التكوين ، الفصل ٣ ، العدد ٨.

وقد أكلا منها فلم يموتا ؟!

ـ وإذ استنكرنا أن ينسب الحديث إلى الحيّة ، فإن يوحنا يجعل في رؤياه مخرجاً من هذا حين يقول : « إن الحية القديمة هو المدعو إبليس والشيطان الذي يُضلّ العالم ». (١)

ـ ولكن يبقى السؤال : كيف يكون إبليس والشيطان الذي يُضلّ العالم أكثر صدقاً من الله تعالى وأكثر منه جلّ شأنه نصيحةً لآدم ؟!

لقد حاولت جمعية الهداية أن تخرج من هذا المأزق الحرج ، فأوّلت الموت الذي حذر الله منه آدم وحواء بأنه الموت الروحي ، وليس هو الموت الحقيقي. (٢)

لكن هذا التأويل لا يشفع لأصحابه ، لأن التوراة نفسها تنفيه ، فهي من ناحية نسبت إلى آدم الموت الروحي قبل أن يأكل من الشجرة ، فقد كان بحسبها لا يعرف الحسن والقبيح ، حتى أنه لا يميز أنه عريان ، ولا يخجل ، فليس له إذن حياة روحية ، فإن من يكون على حال يدرك فيها قبح المخالفة ، لا يصح السخط عليه أصلاً ، فكيف يصح السخط على من لا يعرف الحسن لكي يعرف حسن الطاعة ويرغب فيها ، ولا يعرف القبيح والشر لكي يعرف قبح المخالفة للوصية ؟

ومن ناحية ثانية ، أوجبت لآدم الحياة الروحية حيث أكل من الشجرة ، حتى صار ، بحسب عبارتها ، كالله ! عارف بالحسن والقبيح ، والخير والشر ،

---

(١) الاصحاح ١٢ . العدد ٩.

(٢) كتاب جمعية الهداية ٢ : ١٣١.

وأصبح قابلاً بمعرفته لأن يشرق في قلبه نور العرفان والايمان ، والرغبة في الطاعة ، والاستعفاء من الخطأ.

وهذا يعني أن آدم قد اكتسب حياته الروحية بعد أن أكل من الشجرة كما وعده الشيطان ، ولم يتعرّض لموت الروح ، ناهيك عن موت الجسد ، كما حذره الله ؟!

فليس في هذا التأويل إذن مخرج من ذلك المأزق ، الذي يجعل نص التوراة هذا عرضة للتساؤل والتشكيك بمصدره.

وثمّة تأويل آخر احتجّت به جمعية الهداية في الموضوع نفسه ، فقالت قد يكون المراد من قوله تعالى لآدم إذ أكل من الشجرة : « موتاً تموت » أنه يصير ممن يعرض عليه الموت ، ولا يبقىٰ خالداً.

لكن هذا التأويل هو الآخر تردّه التوراة نفسها ، فقد صرحت في مقدمة هذه القصة بأن آدم لم يخلق للبقاء ، وإن الحراسة أقيمت على شجرة البقاء لكي لا يأكل منها آدم فتدوم حياته ، وأنه من يوم خلق قد غرس التقدير في جسمه بذور الفناء.

فلا يمكن إذن الاعتماد على مثل هذا التأويل ، وعندها لا يمكن الخروج من هذا المأزق ، كما لا يمكن تقديم الصورة المنسجمة لهذه القصة من افادات التوراة.

لكن الرجوع إلى القرآن الكريم هو الذي يوفر لنا الصورة المنسجمة ، التي ميزت بوضوح بين نصيحة الله تعالى ، وبين خداع إبليس ، ولم تنسب إلى آدم الجهل ، بل قد علمه الله تعالى الشيء الكثير قبل هذا ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ**

كُلَّهَا ﴾ (١) ثمّ حذره من الشيطان ، وبين له أنه عدوّ له ولذريته.. ولم يكن ثمّة حية تتكلّم لتكلف تأويلها بإبليس ، بل كان إبليس نفسه هو الذي ﴿ **وَسْوَسَ إِلَيْهِ** ﴾ (٢) ، ﴿ **فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ** ﴾ (٣) فأكلا من الشجرة.

ولم يكونا عريانين قبل ذلك ، يجهلان قبح العري ، بل كان عليهما لباس ، فلما أكلا من تلك الشجرة أصبح ﴿ **يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا** ﴾ (٤).

ففي القرآن وخلافاً لما في التوراة ، تجد تنزيه الله تعالىٰ من كل ما لا يليق ، وتجد النسق المتماسك للأحداث ودواعيها ، الذي لا يضطرك إلى البحث عن تأويلات يصعب تقبلها ، ناهيك عن أن تكون مردودة هي الأخرىٰ بما ورد في السياق من تفاصيل.

أما التوراة فتذهب إلى ما هو أغرب من ذلك كله وأكثر منه نكارة ، حين تجعل من الله شخصاً مجسماً متنقلاً ، تغيب عنه الأشياء فلا يعلمها إلّا حين يسأل عنها ! بل إنه جل شأنه سوف يخشىٰ من آدم أن يكون إلهاً ،كواحد من آلهة لهم وجود وسلطان إلى جنب الله وسلطانه !!

إنها تقول ما حاصله : أن آدم وحواء ــ بعد أن ظهرت عوراتهما ــ سمعا صوت الإله متمشياً في الجنة ! فاختبئا عنه في شجر الجنة ، فنادى الله آدم : أين أنت ؟!

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٣١.

(٢) سورة طه : ٢٠ / ١٢٠.

(٣) سورة الأعراف : ٧ / ٢٢.

(٤) سورة الأعراف : ٧ / ٢٧.

فقال آدم : سمعت صوتك فاختبأت لأني عريان !

فقال الله : من أعلمك انك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة ؟! [١]

وبعدئذٍ قال الله تعالىٰ : هوذا آدم صار كواحد منّا !! عارف بالحسن والقبيح ، والآن يمدّ يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ، فيأكل ويعيش إلى الأبد !!

فأخرجه الله من الجنة ، وأقام شرقيها لهيب سيف متقلّب لحراسة طريق الشجرة !! [٢]

وهكذا ترتكب التوراة أخطاءً فادحة ، وتقع في سلسلة من التناقضات الصارخة ، فتضفي على الخالق المدبر الذي آمنت به خالقاً أحداً ، صفات هي من صفات المخلوقين ، فهو بحسب الصورة المتقدمة جسم محدد الأبعاد ، يتمشىٰ في الحديقة ! ثم يختفي عنه آدم وحواء ، فلا يراهما ولا يدري أين هما ! ثم لا يعلم أنهما قد أكلا من الشجرة الممنوعة حتى يستنبط ذلك استنباطاً من قول آدم إنه عريان !

ثم انه يخشىٰ أن يأكل آدم من شجرة الخلد ، فيصبح إلهاً يشارك الله في سلطانه ! لا سيما بعد أن أصبح يشارك الاله في معرفة الحسن والقبيح !

وأكثر من ذلك يصور لنا نص التوراة الآنف الذكر أن هناك أكثر من إله عارف بالحسن والقبيح ، حتى يقول الله : « هو ذا آدم صار كواحد منّا » وكأنه يتحدث عن جماعة من الآلهة !

---

(١) سفر التكوين ، الفصل الثالث . العدد ٨ . ١٢ .

(٢) سفر التكوين ، الفصل ٣ . العدد ٢ . ٢٤ .

وهـذا مـا لا يسـتقيم مـع مبـادئ التـوراة نفسـها الـتي آمنـت بإلـه واحـد ، خـالق ، لا شريك له.

٣ . مرة أخرى يتكرر المعنى نفسه :

في قصـة بابـل ، وبعـد اخـتلاف اللغـات ، يقـول سـفر التكـوين في التـوراة : ان بـني آدم اجتمعـوا بعـد الطوفـان لكـي يبنـوا لهـم مدينـة حصـينة عاليـة لـئلّا يتبـددوا ، فنــزل الله لينظــر المدينــة !! وقــال الله : هــذا شــعب واحــد ، ولســان واحــد ، وهــذا ابتــداؤهم بالعمــل الآن ، لا يمتنــع علــيهم كــل مــا ينــوون أن يعملــوه.. تعــالوا ننــزل ونبلبل لسانهم ، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض !! [1]

فهـا هـو الله كمـا تصـوره التـوراة ، تخفـى عليـه أنبـاء عبـاده ، فيحتـاج الى النـزول والاطلاع عليهم لتجسس أخبارهم !

ثم هــا هــو مــرّة أخــرى يخشــى قــوتهم وتماســكهم ، فيســتعين بملائكتــه ــ علــى مــا يبــدو ــ ليــزرع أســباب الاخــتلاف بــين أبنــاء المدينــة الواحــدة المتلاحمــين ، ليضع بينهم بذور الفتن والاضطراب بيده !

لـيس في سـائر الأديـان مـا هـو أكثـر غرابـة مـن هـذا التصـور لصـفات الله تعـالى ، ولطبيعة أفعاله ، وطبيعة علاقته بعباده.

كمــا أنــه لــيس هنــاك مــا هــو أكثــر ســخفاً مــن هــذا التفســير لمنشــأ اخــتلاف الألسن وتعدد اللغات.

انهــا تصــورات تكشــف عــن رؤيــة لاهوتيــة مفرطــة في الســلبية ، فهــي حــين تريــد أن تنســب كــل شــيء لله وحــده ، لا تتــوانى في تصــغير الله تعــالىٰ ، وإدخالــه

---

(١) سفر التكوين ، الفصل ١١ . العدد ٤ . ٨.

المسالك التي تريد ، لتنسب إليه كل شرّ يقع بين بني البشر نسبةً مباشرة.

لكن هذا الفاعل للشر ، والذي لا يتخلف فعله ، هو في الوقت نفسه محتاج لكي يطلع على أحوال البشر إلى كل أدوات الاطلاع الطبيعية التي يحتاج إليها الانسان نفسه !

وكأنهم بنسبتهم هذه الأفعال الى الله تعالى وبهذه الطريقة الفجة ، إنما يريدون أن يوفّروا لأنفسهم الرضا والقناعة بأن التشرذم والشتات الذي أصاب بني إسرائيل إنما هو من فعل الله وحده ، وبهذه الأساليب المباشرة ، والتي يكون بعضها نتيجة « حسد » الله تعالى شأنه لعباده على ما يراهم عليه من قوة ومجد وتماسك !!

٤ . يعقوب يصارع الله !!

يقول العهد القديم : إن يعقوب صارعه انسان إلى طلوع الفجر ، ولما رأى أنه لا يقدر على يعقوب ضرب على فخذه فانخلع !

وقال الإنسان ليعقوب : أطلقني !

قال : لا أُطلقك إن لم تباركني !

فقال ليعقوب : لا يدعى اسمك يعقوب ، بل « يسرائيل » أي يجاهد الله ! لأنك جاهدت مع الله ومع الناس وقدرت !!

وسأله يعقوب عن اسمه ، فقال : لماذا تسأل عن اسمي ؟ وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان : « فنئيل » أي وجه الله ! قائلاً : لأني رأيت الله .. ونجيت نفسي !! [١]

---

(١) سفر التكوين . الفصل ٣٢ . العدد ٢٤ . ٣١.

وهكـــذا يتمثـــل الله جـــل شـــأنه بصـــورة إنســـان ، وينـــزل الى الأرض ، ويصـــارع يعقـــوب حـــتى طلـــوع الفجـــر ، فـــلا يقـــوىٰ عليـــه ، بـــل يكـــون يعقـــوب هـــو المتغلـــب القـابض علـى « خصـمه » ! فيتوسـل بـه ذلـك الإنسـان ـ الـذي هـو الله كمـا يزعمـون ـ أن أطلقني ! فيأبىٰ يعقوب حتى يأخذ منه البركة التي يريدها عنوةً !

كيــف يتصــور عاقــل أن هــذا الكــلام هــو مــن وحــي الســماء ، أم مــن كــلام الأنبيــاء ؟! دع عنــك المــورد الأخــير « لأني رأيــت الالــه وجوهــا لوجــوه » ! فــإذا كــان يصــور لله وجوهــاً لــيراد بهــا معــاني غائبــة عنــا ، فكيــف تكــون لــه هــو وجــوه ، لا وجــه واحد ؟!

٥ . الله في وسط العليقة !!

مــا زالــت التــوراة تتحــدث عــن الله جــل جلالــه وكأنــه جســم كالانســان ، ينــزل إلى الأرض مــرة بعــد أُخــرىٰ ، فلمــا أراد أن يــوحي إلى موســىٰ نــزل إليــه الى الأرض ليكلمه !

تقــول التــوراة : « إن موســىٰ كــان يرعــى الغــنم ، فجــاء بهــا إلى حوريــب ، وظهــر مــلاك الله لــه بلهبــة نــار مــن وســط عليقــة [1] ، وإذا العليقــة تتوقــد ولا تحــترق ، فمــال موسـى لينظـر ، فلمـا رآه الله مـال ، نـاداه الالـه مـن وسـط العليقـة ، وقـال لـه : أنـا إلـه أبيـك إبـراهيم ، إلـه اسـحاق ، إلـه يعقـوب ! فغطـىٰ موسـىٰ وجهـه ، لأنـه خـاف أن ينظـر إلى الاله » ! [2]

وهكـــذا تميـــل التـــوراة إلى تجســـيم الالـــه وتجســـيده ، وكـــأن صـــورة فرعـــون

---

(١) العليقة : ما تعلفه الدابة من شعيرة ونحوه. انظر لسان العرب ١٠ : ٢٦٧ . علق.

(٢) سفر الخروج ـ الفصل ٣.

الـــذي كـــان يـــدعي أنـــه إلـــه المصـــريين قـــد اســـتحوذت علـــى عقـــولهم وقلـــوبهم ، فـــلا يســـتطيعون الافـــلات منهـــا ، فهـــم يعيشـــون أبـــداً في إيحـــاءات ديانـــة المصـــريين القدامىٰ وتصوراتهم عن الآلهة.

ومـــع ذلـــك فقلمـــا أوردوا نصـــاً في هـــذا الشـــأن إلا والاضـــطراب أو التنـــاقض شاخصـــان فيـــه ، ففـــي أول هـــذا الـــنص ظهـــر مـــلاك الله لموســـىٰ بلهبـــة نـــار في وســـط العليقـــة ، لكـــن ســـرعان مـــا يكـــون هـــذا الـــذي ظهـــر في وســـط العليقـــة هـــو الله نفســـه ! ظهـــوراً قـــابلاً للرؤيـــة الطبيعيـــة بجســـم محـــدد المعـــالم ، غـــير أن موســـىٰ غلبـــه الخـــوف فغطىٰ وجهه لئلا يراه !

٦ . بنو إسرائيل يرون الله !!

إذا كـــان موســـىٰ عليه السلام قـــد تخـــوّف مـــن النظـــر إلى الله للمـــرة الأولىٰ ، فإنـــه وقومـــه ســـيرون الله مجتمعـــين ، كمـــا تـــزعم التـــوراة : « وصـــعد موســـى وهـــارون ونـــاداب وابيهـــوا وســـبعون مـــن شـــيوخ بـــني اســـرائيل ، فـــرأوا إلـــه اســـرائيل ، وتحـــت رجليـــه شـــبه صـــنعة مـــن العقيـــق الأزرق الشـــفاف ، وكـــذات الســـماء في النقـــاوة ، لكنـــه لم يمـــد يـــده إلى شراف بني إسرائيل ، فرأوا الله ، وأكلوا وشربوا » [1].

انهـــا لا تعـــدو كونهـــا خصـــلة مـــن خصـــلات المصـــريين القـــدامى في محظـــر الآلهـــة ! وكـــل مـــا صـــنعته التـــوراة انـــه اســـتبدلت الآلهـــة المصـــرية بإلـــه صـــعدوا إليـــه هـــذه المـــرة ، ومنحتـــه صـــنعة مـــن العقيـــق تحـــت رجليـــه لم يرهـــا المصـــريون تحـــت أرجـــل آلهتهم.

إنهـــا تتحـــدث عـــن أحـــلام بـــني إســـرائيل في رؤيـــة الله وكأنهـــا حقيقـــة قـــد وقعـــت !

---

(١) سفر الخروج ـ الفصل ٢٤ ـ العدد ٩ ـ ١١.

تلك الأحلام التي تحدث عنها القرآن وعن عواقبها ، قال تعالىٰ : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (١) !

وأيضاً : ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (٢) أي أنكم رأيتم بأم أعينكم كيف أخذتكم الصاعقة جزاءً على طلبكم الأهوج هذا !

لكن الذي يبدو هنا أن بني إسرائيل وهم يؤرخون لأنفسهم ، لم يكتفوا بتزوير الوقائع ، بل فضّلوا الانتصار لأحلام أسلافهم الهابطة حتى على أصل التوحيد وما يتعلق به من صفات الكمال والجلال.

٧ . الله يتراجع عن قتل موسىٰ !!

بعد حديث سفر الخروج عن موسى وفرعون ووعد الله موسى بأن يكون معه ، قالت ما حاصله : إن الله سيأتي بكل عجائبه ويضعها أمام فرعون ! على أن يحضر موسى هذا الموقف ، لكن لماذا موسى إلى مصر بأمر الله ومواعيده التقاه الله ! وطلب أن يقتله !! فأخذت صفورة زوجة موسىٰ صوّانة ، وقطعت غرلة ابنها ، ومست رجل موسىٰ بالدم ، فانفك الله عنه !! (٣)

عجباً عن أي إله تتحدث التوراة ، إن لم يكن واحداً من آلهة المصريين القدامى ؟!

---

(١) سورة النساء : ٤ / ١٥٣.

(٢) سورة البقرة : ٢ / ٥٥.

(٣) سفر الخروج . الفصل ٤.

٨ . يحارب ويحتار !!

سينزل الله ـــ كما تزعم التوراة ـــ مرة اخرى إلى أرض مصر ، ليحارب المصريين هذه المرة ، لكنه سوف لا يستطيع أن يميّز بيوت أوليائه عن بيوت أعدائه ، فأمر أولياءه أن يضعوا على أبواب بيوتهم علامات ، فاذا رآها تجاوزها الى بيوت الآخرين ليضربها !

«إن الله أمر بني اسرائيل أن يذبحوا الفصح ، ويلطخوا العتبة العليا والقائمتين من أبوابهم بالدم ، لأن الله يجتاز ليضرب المصريين ، فحين الدم يعبر عن الباب »!! (١)

المبحث الثاني : الأنبياء في التوراة

١ . هارون بين التوراة والقرآن :

مع أن التوراة تقرّ بأن الله اختار هارون للنبوة مع أخيه موسىٰ ، قبل حادثة العجل ، وبعدها ، دون أن ينسخها (٢) ، فهي تعرض له صورة مقززة ، حين تنسب إليه صناعة العجل وعبادته ، الأمر الذي ينسبه القرآن إلى السامري.

ففي التوراة : إن بني إسرائيل قالوا لهارون : اجعل لنا آلهة يسيرون أمامنا ! فقال لهم : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وأطفالكم وآتوني بها ، فأتوا بها إلى هارون ، فأخذ ذلك وصيره عجلاً مسبوكاً ، فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل !

فلما نظر هارون بنىٰ مذبحاً أمام العجل ، ونادىٰ هارون : غداً حجّ للرب ،

---

(١) سفر الخروج . الفصل ١٢.

(٢) سفر اللاويين . الفصل ١١ و ١٤ ، سفر العدد . الفصل ٢ و ٤ و ١٩.

فاصعدوا في الغد على المذبح وقدموا ذبائح سلامة ! [١]

ومع أن العهد القديم لا يتورّع في نسبة الشرك الى سليمان أيضاً ، حين أمال قلبه النساء المشركات ـــ بزعمها ـــ فذهب وراء « عشتاروت » إلهة الصيدونيين ، و « ملكوم » إله العمونيين و « كموش » صنم الموابيين ! [٢]

غير أن القرآن الكريم لا يعرف نبياً يشرك بالله شيئاً ! وكيف يكون داعية إلى التوحيد من ينقض التوحيد بنفسه ويقرّ الشرك ويمارسه !!

وهل انقطع البشر ليختار الله من المشركين أنبياء له ؟!

ان الصور التي يعرضها القرآن للأنبياء هي صور الأنبياء التي لا يداخلها ريب على الاطلاق.

وفي قصة هارون نموذج التمييز بين صورة النبي في القرآن ، ونظيرتها في التوراة.

ان القرآن يبرئ هارون من كل ذلك ، فهو الذي خاطب قومه حين عبدوا العجل بكل ألم : ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ [٣]. فأبوا عليه وتمردوا ، وقالوا : ﴿ **لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾ [٤] فلما عاد موسىٰ شكا إليه هارون : ﴿ **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي** ﴾ [٥].

---

(١) سفر الخروج . الفصل ٣٢.

(٢) سفر الأيام الأول . الفصل ٢٨ . العدد ٦.

(٣) سورة طه : ٢٠ / ٩٠.

(٤) سورة طه : ٢٠ / ٩١.

(٥) سورة الأعراف : ٧ / ١٥٠.

فأين هذه الصورة من تلك ؟!

والقرآن حين يبرئ هارون عليه‌السلام من هذا الدور ، ينسبه في الوقت نفسه الى السامري [١] ، الذي هو أحد أفراد بني اسرائيل الذين كانوا في صحبة موسىٰ وهارون.

عندئذٍ جاء شراح العهد القديم لينكروا وجود السامري آنذاك ، ظناً منهم أنه المنسوب الى مدينة السامرة التي لم تقام إلّا بعد عهد موسىٰ بزمن طويل [٢].

غافلين عن أن هذه النسبة موجودة عندهم في التوراة مع مواضع عديدة بلفظ « الشمروني » نسبة الى شمرون بن يساكر بن يعقوب ، وقد كان الشمرونيون مع موسىٰ عليه‌السلام [٣].

٢ . من هو الذبيح ؟

في العهد القديم تناقض واضح في تسمية الذبيح من ولد إبراهيم الخليل ، أهو اسحاق ، أم إسماعيل ؟

تقول التوراة ان الله خاطب إبراهيم في حين أمره بذبح ابنه ، فقال :

« ابنك ، وحيدك » يكررها ثلاث مرات ، ثم تسميه بعد ذلك فتقول : « اسحاق ».

لكن التوراة نفسها تعترف بان إسحاق لم يكن وحيد ابراهيم يوماً ما ،

---

(١) سورة طه : ٢٠ / ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٥.

(٢) جمعية كتاب الهداية ١ : ٣٧.

(٣) سفر العدد . الفصل ٢٦ . العدد ٢٣.

فلقد ولد له اسماعيل قبل اسحاق بخمسة عشر سنة [١] ، وهذا يعني أن إسماعيل هو الذي كان وحيد إبراهيم على مدى خمسة عشر سنة ، فإذا كان النداء في تعريف الذبيح بـ « ابنك ، وحيدك » فهو إنما يريد إسماعيل ، دون شبهة ، وقبل أن يولد إسحاق.

ويؤيد هذا أن المروي عن أهل البيت عليهم السلام هو كون الذبيح إسماعيل لا إسحاق عليهما السلام [٢].

٣ . لوط وابنتاه :

صورة بشعة تقدم التوراة عن لوط عليه السلام ، لا ترتضى لذي عقل من سائر البشر ، ناهيك عن كونه نبياً تعرف التوراة نبوّته.

ففي العهد القديم أن الله تعالى لما قلب سدوم ــ بلد قوم لوط ــ وأنجى لوطاً ، كان معه ابنتاه ، فسكن معهما في مغارة الجبل ، فتشاورت ابنتاه واتفقتا على أن تسقياه خمراً ثم يضطجعا معه ! فسقتاه خمراً ذات ليلة ، واضطجعت معه الكبيرة ، فواقعها وهو لا يعلم ! وسقتاه في الليلة الثانية واضطجعت معه الصغيرة فواقعها وهو لا يعلم ! فحبلت البنتان من أبيهما ، وولدتا !! [٣]

لا يرتاب أحد في أن هذه القصة إنما هي من نسيج خيال رجل مصاب بالشذوذ أو الكبت الجنسي المفرط ! وإلّا فكيف يتم مثل هذا في الواقع ؟ ناهيك عن كونه حديث عن نبي اصطفاه الله للهداية والتزكية !

---

(١) سفر التكوين . الفصل ١٦ . العدد ٧ . ١٤ والفصل ٢٢.

(٢) راجع البرهان في تفسير القرآن / البحراني ٤ : ٦١٨ في تفسير الآيات : ١٠٠ ــ ١١٣ من سورة الصافات وتفسير الميزان / الطباطبائي ٧ : ٢٣٢ ــ ٢٣٤ في تفسير الآيات : ٧٤ . ٨٢ من سورة الأنعام.

(٣) سفر التكوين . الفصل ١٩.

فهل بلغ به السكر هذا الحد الذي أنساه على طول الوقت انه ليس معه من النساء سوى ابنتيه ؟

وهل بلغ به السكر الى الحد الذي يفيق معه وهو يجامع فتاة باكر الى نهاية المطاف ؟

وإذا بلغ به كل هذا الحد ، ترى أليس سيرىٰ بعد صحوته في نهار الغد آثار ما وقع على نفسه ؟

ثم هل يتكرر ذلك كله في الليلة التالية دون أن يشعر بشيء منه ؟

وأهم من هذا كله : كيف أسلم هذا الشيخ نفسه لابنتيه يسقياه الخمر الى هذا الحد المبالغ فيه ، مرّةً بعد أُخرىٰ ؟!

ترىٰ هل سقياه الخمر زرقاً بالوريد بعد أن وضعا له مخدّراً في طعامه أو شرابه ؟

اذا كانت التقنية الطبيّة قبل نحو الفي عام قبل الميلاد تسمح بمثل هذا ، فهو الاحتمال الوحيد لصدق الفصل الاول من القصة ، لكنه لا يسمح بقبول غفلة الشيخ آثار ما وقع في ليلته في نهاره التالي ، لتنكشف اللعبة ، فلا تتكرر معه مرة أُخرىٰ !

ثم كيف لعبت الصدفة لعبتها ، لتحبل البنتان معاً من الجماع الأول في حياتهما ؟!

هذه الأسئلة ، وغيرها أيضاً تثور على الفور حين نعلم أن التوراة تزعم أنها تتحدث عن وقائع تاريخية لعقلاء الناس ، أما إذا كانت واحدة من قصص الخيال ، فهي وشأنها.

٤ . كيف أخذ يعقوب البركة من أبيه ؟

كان اسحاق عليه السلام قد فقد بصره ، وله أولاد ، فأراد أن يبارك ولده البكر «عيسو» دون أن ندري ؛ أبرغبة منه ، أم بأمر من الله ؟

فقال لولده عيسو : « اذهب ، وصد صيداً ، واصنع لي منه أطعمة ، كما أحبّ ، حتى تباركك نفسي قبل أن أموت » وكان يعقوب يسمع ، فانطلق قبل عيسو وأخذ جديين من المعز ، وصنع منهما أطعمة ، ولبس ثياب عيسو ، وزوّر نعومة يديه وعنقه بأن جعل عليه جلد جدي لكي يكون مشعراً كعيسو ! وقال لأبيه إسحاق : أنا عيسو ، فعلت كما كلّمتني ، كل من صيدي !

فقال اسحاق . الذي يبدو أنه ارتاب قليلاً ربما لاختلاف نبرة الصوت . :

هل أنت ابني عيسو ؟

قال يعقوب : أنا هو !

فأكل اسحاق من الصيد ، وشرب خمراً ! ثم بارك يعقوب !

فجاء عيسو بصيده الى أبيه يطلب البركة التي وعده بها ، فلما عرف اسحاق المكر من يعقوب ، ارتعد ارتعاداً عظيماً ، وقال : من هو الذي باركته ، ويكون مباركاً ؟!

فصرخ عيسو ، وقال لأبيه : باركني أنا أيضاً !

فقال اسحاق : « جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك » !

فقال عيسو : أما بقيت لي بركة ؟

قال اسحاق : « إني جعلته سيداً لك ، ودفعت إليه جميع اخوته عبيداً ، وعضدته بحنطة وخمر ، فماذا أصنع إليك يابنيّ » ؟! (١)

فهل تنتقل بركة النبوة بهذه الطريقة ؟

فمع فرض وقوع النبي بالخديعة ، وإهدائه ميراث النبوّة للذي مكر به

---

(١) سفر التكوين . الفصل ٢٧ . العدد ١ . ٤٠ .

وخدعه ، فهل سينقل ميراث النبوة للماكر الخادع ، دون أن يكون لله تعالى أي دور يذكر في اختيار نبيه ؟

هذا إذا ما افترضنا صحة ما تدعيه التوراة التي بين أيدينا من أن انتقال ميراث النبوة كان متوقفاً على أكلة شهية ترضي النبي ، يعقبها شربة من خمر تطلق أشجانه !!

لكأن ناسج هذه الأسطورة أراد لبني إسرائيل أن يتعلموا أن المكر والخديعة هي طريق الفوز ، وليس ثمّة صلاح ولا تقوىٰ ولا صدق ولا اخلاص.

٥ . بيت داود عليه السلام :

يبدو أن من مهندسي التحريف في التوراة رجالاً اصيبوا بالشذوذ الجنسي الحاد ، فأسقطوا هواجسهم ونزعاتهم على بيوت الأنبياء بكل صلافة ، فلم تكن قصة لوط وابنتيه هي الانموذج الوحيد لهذا الاسقاط ، بل سيتابع هذا العامل انعكاساته في الكثير من بيوت الأنبياء !!

وابتداءً من أولاد يعقوب ، سيمارس يهوذا الزنا مع كنته ، زوجة ابنه البكر ، ويتخذها صاحبة سر أمداً طويلاً ، حتى تلد منه ولدين ، هما فارض ، وذارح ! [١]

وفارض هذا هو جدّ الأنبياء اللاحقين : داود ، وسليمان ، وعيسىٰ عليهم السلام !

ومع أن التوراة تقول : « لا يدخل ابن الزنا في جماعة الرب حتى الجيل العاشر » [١].

فقد دخل داود هذه الجماعة وهو الابن العاشر لفارض.

وسوف ينتقل هذا الداء ــ بحسب هذه الأساطير ــ الى بيت داود ، ويفتك

---

(١) سفر التكوين . الفصل ٣٢.

(٢) سفر التثنية . الفصل ٢٣ . العدد ١٠.

بأهل هذا البيت أي فتك !!

فسيرتكب « أمنون » ابن داود الأكبر فضيحة الزنا ، وعلى مدى غير قصير ، مع اخته « ثامار » ! ويكون الوسيط بينهما ابن عمّهما « يوناداب » ابن أخي داود !

وسيعلم داود بهذا الأمر ، لكنه لا يعاقب ولديه بحدود الشريعة ، لأنه يحبهما ، « ولم يُحزن داود روح أمنون ابنه ، لأنه أحبه ولأنه بكره » !

فلما ثار ولده الآخر « ابشالوم » شقيق ثامار ، فقتل أمنون « بكىٰ داود بكاءً عظيماً ، وناح عليه كلّ الأيام ».

لكن التوراة سوف تعطف على ابشالوم الذي ثار لشقيقته ، فهو لم يثأر تديناً وعفّة ، لأنه قد مارس مثل فاحشة أخيه !! « ان ابشالوم ابن داود زنا بسراري أبيه ونسائه على السطح بمنظر بني إسرائيل » وحتى هذا لم يغضب نبي الله داود ، إذ « لما مات بكىٰ عليه داود كثيراً بصراخ ، قائلاً : من يجعل موتي أنا عوضاً عنك يا ابشالوم ! ابني يا ابني » ! [1]

بل سيصل الأمر عند صموئيل الى داود النبي عليه السلام نفسه ، إذ سيعشق زوجة واحد من قواد جيشه « اوريا » وينصب له مكيدة ، فيدفعه في حرب غير متكافئة حتى يقتل ، فيأتي داود امرأته على الفور ، وتحمل منه من الزنا !! [1]

فأي شذوذ هذا الذي كان يسوق ناسج هذه الخيالات الخبيثة ، ليصنع أمة لا يوقفها عن الخيانة شيء.

ولم يتعود قراء التوراة الوقوف على ما فيها من تناقضات فاحشة ، فلم

(١) كتاب صموئيل . السفر الثاني . الفصل ١٣ و ١٦ و ١٨ ، النسخة السبعينية.

(٢) كتاب صموئيل . السفر الثاني . الفصل ١١.

يرتعدوا من هذه الصور ، حتى وهم يقرأون في مزامير داود مناجاته ، وهو يخاطب ربه سبحانه وتعالىٰ ، قائلاً : « عن شريعتك لم أَمِلْ ، أما أنا فلم أترك وصاياك ، من كل طريق شرٍّ منعتُ رجلي ، لكي أحفظ كلامك ، عن أحكامك لم أمِل ، لأنك أنت علمتني .. أما وصاياك فلم أضلّ منها » (١).

فكيف يليق أن تنسب تلك السفاسف الى صاحب هذا الخطاب القدسي ، وهو بعد النبيّ الذي اختاره الله لهداية قومه وتزكيتهم والأخذ بأيديهم إلى سبيل الهدىٰ والرشاد ؟!

٦ . إرهاب موسىٰ ويوشع :

تصف التوراة أنبياء بني إسرائيل بقسوة لا نظير لها :

١ ـ فلما تغلب بنو إسرائيل على المديانيين وسبوا نساءهم وأطفالهم ، أمرهم موسى أن يقتلوا كل ذكر من الأطفال ، وكل امرأة ثيّب ! وأما صغار النساء اللواتي لم يقربهن رجل فإنهن يبقين حيّات لهم وقد كنّ اثنين وثلاثين ألفاً ! (٢)

ترىٰ كم قتل موسىٰ من الأطفال والنساء في حكم واحد ؟ ولأي ذنب أجرىٰ عليهم هذا الحكم ؟

٢ ـ ومثل هذا صنعه موسىٰ (بزعم التوراة) عند استيلائه على الأموريين ، وعند الاستيلاء على مملكة عوج !

٣ ـ تزعم التوراة أن الله أمر بني إسرائيل أن يحرّموا مدن الحيثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين واليبوسيين ، ولا يبقوا منها نسمة أصلاً ، من

(١) مزامير داود . المزمور ١١٩ .

(٢) سفر العدد . الفصل ٣١.

البشر أو من البهائم !

وهـذا مـا صـنعه يوشـع بـن نـون ـ بحسـب التـوراة ـ في حروبـه ، حـتى كـان عـدد المقتولين بأمره من هذه المدن يعد بمئات الألوف ! [١]

فهـل كانـت التـوراة تنقـل في هـذه الأخبـار سـير الأنبيـاء وشـريعة السـماء ، أم انهـا كانـت ترسـم النزعـة الاسـرائيلية في الابـادة والافنـاء ، المنبعثـة مـن حقـد متجـذّر علـى سـائر بـني الانسـان ، والـذي كـان مصـدراً لاعتقـادهم الهـابط بـأنهم شعب الله المختار الذي له أن يملك مصائر شعوب الدنيا ويتحكم بها ؟!

انهـا النزعـة الاسـرائيلية العنصـرية بـلا شـك ، صـوّرت علـى أنهـا شـريعة السـماء وفعـل الأنبيـاء لكـي يتـدين بهـا اليهـودي ، ولا يجـد رادعـاً أمـام تهتكـه بقـيم الانسـانية وكرامـة وحقـوق الانسـان ، هـذه المبـادئ الـتي عاشـت عليهـا الصـهيونية المعاصـرة وأقامـت بواسـطتها دولتهـا اللقيطـة ، مـع ملاحظـة أن الأكثـر تـديناً مـنهم « اليمـين المتطـرّف » هـو الفصـيل الأكثـر تعصـباً لهـذه المبـادئ الهمجيـة والأخـلاق الوحشية.

انـه الخلـق الاسـرائيلي القـديم الـذي تشـهد عليـه التـوراة وتؤصـله ، والـذي وجدت فيه الصهيونية المعاصرة مادتها ومرجعها الروحي والقومي.

إن أمـة تحـيىٰ بمثـل هـذه المبـادئ والأخـلاق الوحشـية حريـة بـأن تتلقـىٰ عقوبتها على أيدي أمم الأرض ، حتى تستفيق من سكرة طغيانها.

٧ . الحاضر والغائب في التوراة :

في الوقـت الـذي تطيـل التـوراة الحـديث حـول الشـجرة ، وبهـذه اللغـة الـتي

---

(١) سفر التثنية . الفصل ٢ وفصل ٢٠ ، وسفر يوشع.

تثير العديد من التساؤلات ، وتطيل أكثر وأكثر في ذكر تفاصيل أخبار بني اسرائيل ، فهي لا تذكر شيئاً عن قصة ابراهيم مع النمرود في بابل ، ولم تشر ولو اشارة الى حادثة النار التي أضرمها له النمرود ، بل ابتدأت اخبار ابراهيم من أرض حران وهي مهاجره من بابل. مع أن كتباً يهودية أخرىٰ تذكر هذه الحادثة على نحو ما ذكرها القرآن.

ومن المناسب ذكره أن لهذه الحادثة آثاراً تاريخية قديمة تدل عليها ، ففي نواحي بابل توجد مدينة « بورسيبا » ، وتسمى « الله وبرس » وهي قديمة جداً ، إذ يعرف من كتابة بختنصّر [القرن السادس قبل الميلاد] والتي كشفت سنة ١٨٤٥م في أخربة « بورسيبا » أن باني هذه المدينة هو أول الملوك ، وبينه وبين بختنصّر اثنين وأربعين زمناً ، أي ملكاً ، والى الآن في بورسيبا آثار قديمة جداً تعرف باسم إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقبة في الموضع الذي يذكر أن نمرود طرح فيه ابراهيم في النار ، على تلّ كبير أسود رمادي.

وفي الوقت الذي تغرق فيه التوراة في إيراد المواعظ والترهيب والترغيب والبشرىٰ والتخويف ، فهي لم تذكر يوم المعاد ، وحشر العباد للجزاء ، ولا ذكرت ثواب الآخرة وعقابها ، فهل يخلو وحي إلهي من ذكر يوم القيامة ومشاهده الكبرىٰ ؟ إنه أمر غريب ، يثير التساؤل الجاد حول مدىٰ احتفاظ هذه التوراة بأصول الرسالة الموسوية ، ناهيك عن سائر نصوصها.

المبحث الثالث : التوراة والتحريف

قد يكون من اليسير جداً اثبات وقوع التحريف الكثير والكثير جداً في التوراة ، والذي أحدث معاني خطيرة وخطيرة جداً ، عن طريق الاحتكام إلى

العقل وحده الذي لا يرتضي نسبة مثلها الى شريعة سماوية ، والى وحي إلهي توحيدي ، ولعل في كل واحد من النصوص التي تم عرضها آنفاً دليلاً على وقوع التحريف ، والوضع الكثير في التوراة ، وشاهداً عليه.

علماً أن هذه النصوص المنقولة آنفاً هي من النصوص الثابتة في أهم الأصول العبرانية للتوراة ، ابتداءً بالأصل العبراني الخطي المجرد عن الحواشي والمقدس عند اليهود بمراقبة أحبارهم ، ثم الأصل العبراني الخطي المزين بالحواشي والمتداول عند اليهود وأحبارهم ، والتراجم الكثيرة باللغات المتعددة المطبوعة والمنتشرة بين سائر يهود العالم وغيرهم.

فهي اذن نصوص من أُصول التوراة التي يتفق عليها اليهود ، فما يأتي عليها يأتي على التوراة نفسها.

والعقل الموضوعي قد رفض قبول تلك النصوص كلها :

فإذا كانت التوراة وهي الإله الواحد ، فأيّ إله يرتضي الحديث عن شركاء له في الالوهية ، وهو يدعي الوحدانية ؟!

وكيف يتكلم الإله عن خوفه من مخلوقه الآدمي ، وابتكاره فنون الحيل ليحول دون بلوغ آدم إلى أسرار القوة خشية أن يصبح إلهاً مثله ؟!

أي إله ينزل إلى الأرض ليصارع أنبياءه ، أو ليزرع الفتن في الأمم التي أخذت طريقها إلى النهوض والرقي ، خوفاً من قوتها ، ثم يتحدث عن ذلك في وحيه ؟!

ثم أي انبياء يختار الله لتبليغ رسالته التي تهدف الى اصلاح الأمم وهدايتها الى سبل الفوز بمجد الدنيا ونعيم الآخرة ؟ أي أنبياء هؤلاء الذين يقعون في أحطّ الرذائل وأخس الفواحش !! ثم يتحدث عنهم الاله في وحيه

كأنبياء له وأمناء على وحيه ورسالته ؟ فهل عجز عن اختيار أنبياء صالحين ؟

محال أن يكون هذا أو شيء منه من صنع إله حق ومن حديث الله ربّ العالمين ومن تبليغ الأنبياء ورسالاتهم.

إنه من اليسير جداً الاكتفاء بهذا لتعليل قناعة كافية ، قائمة على منطق علمي ، بكثرة الوضع والتحريف في التوراة.

غير أنه ثمّة طرق أُخرىٰ لاثبات ذلك ، دون التوقف عند الاحكام العقلية وحدها ، التي قد يجادل بها معتنقو تلك المقولات لركونهم الموروث والمتلقىٰ إليها.

من هنا فإن البحث العلمي يستدعي الوقوف عند أدلة اخرىٰ ، موضوعية ، لا تدخل دائرة النزاع العقلي المجرد ، بقدر ما تكشف عن وقائع ثابتة ، وتجلي أرقاماً حقيقية ، لا مفرّ من دلالاتها وشهاداتها ..

وليس هنا أهم من بحث الواقع التاريخي للتوراة مع ما يتضمنه من أرقام وشهادات ، نقدمه في فقرتين :

الفقرة الأولىٰ : الامكان التاريخي للتحريف

الواقع التاريخي لبني إسرائيل ــ كما ترسمه كتب العهد القديم ــ يكشف عن حقائق خطيرة تمسّ التوراة ، وتجعل وقوع التحريف والوضع فيها ليس أمراً ممكناً وحسب ، بل هو الأمر الراجح ، بل المؤكد.. وهذه صورة مختصرة عن مفاصل تاريخية مهمة ذات صلة وثيقة بقصة التوراة.

إن بني إسرائيل خرجوا من مصر إلى برية سيناء وآيات الله ودلائل رسالة موسىٰ تتوالىٰ عليه ليلاً ونهاراً ، وقد تكرر عليهم الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك وعبادة الأوثان ، ومع ذلك صنعوا العجل الذهبي وقالوا : «هذه آلهتك

ياإسرائيل التي أصعدتك من مصر » ! وسجدوا للعجل !

ولما أقاموا مع موسىٰ في « شطيم » وزنوا ببنات « مواب » دعوهم هؤلاء النسوة إلى ذبائح آلهتهن ، فسجدوا لآلهتهنّ وتعلقوا بـ « بعل فغور » !

ولم تمض مدة طويلة عن موت يوشع حتى تركوا الله وساروا وراء آلهة أخرىٰ ، وعبدوا « البعل » و « عشتاروت ».

وبعد موت « جدعون » رجعوا إلى شركهم وراء « البعليم » وجعلوا لهم « بعل بريث » إلهاً !

وبعد موت « يائير » عبدوا « البعليم » و «العشتاروت » وآلهة آرام ، وإله صيدون ، وآلهة مواب ، وآلهة عمون ، وآلهة الفلسطينيين !

وقالت مزامير داود عنهم إنهم اختلطوا بالمشركين ، وعبدوا أصنامهم ، وذبحوا بنيهم وبناتهم للأوثان !

ولما مات سليمان لم يتبع ابنه « رحبعام » سوى سبطا يهوذا وبنيامين ، أما أبناء الأسباط العشرة الأخرىٰ فملّكوا عليهم « يربعام » فعمل عجلاً ذهب تعبده رعيته ، وقال : هذه آلهتك يا إسرائيل ! واستمر هؤلاء على عبادة عجول الذهب. حتى إذا ملك « أخاب » شاعت عبادة « البعل » واستمروا على هذا حتى تملك عليهم « هوشع » وفي أيامه سباهم ملك آشور ، وأسكن في ديارهم غيرهم.

وأما سبطا يهوذا وبنيامين فإنه لما تشتّت مملكة « رحبعام » ابن سليمان ، ترك التوراة هو وكل بني إسرائيل معه ، وعمل يهوذا الشرّ أكثر من جميع ما عمل آباؤهم ، وبنوا لأنفسهم آثار الشرك على كل تل مرتفع ، وتحت كل شجرة خضراء ، حتى صار منهم مأبونون ينذرون أنفسهم للأوثان لكي يلاط بهم !!

وفي السنة الخامسة لملك « رحبعام » نهب « شوشق » ملك مصر خزائن

بيت الله وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء.. ثم ملك « أبيا بن رحبعام » وسار في جميع خطايا أبيه ، ولما ملك ابنه « آسا » أزال آثار الشرك ، ولكن مرتفعات الأصنام لم تزل.

ولإسرائيل أيام كثيرة بلا إله حق ، وبلا كاهن معلّم ، وبلا توراة.

ثم ملك « يهوشا فاط بن آسا » وعمل المستقيم ، ولكن مرتفعات الأصنام لم تزل. ثم ملك بعده « يهورام » ابنه ، وبعد ابنه « اخزيا » وعملا شر الشرك ، وبعد « أخزيا » ملكت أُمه المشركة « عثليا بنت عمرس » وهدم بنوها بيت الله وجعلوا كل أقداس بيت الله للبعليم ، إلى أن قتلوا عثليا ونهض « يواش الملك » و « يهوياداع » الكاهن ، فجددا بناء بيت الله وأقاموا على رسمه ومقداره ، ولما مات « يهوياداع » الكاهن جاء رؤساء يهوذا وسجدوا للملك يواش ، فسمع لهم ، وتركوا بيت الله إلههم ، وعبدوا السواري والأصنام ، ورجموا « زكريا بن يهوياداع » لأجل دعوته الى الإيمان ونهيه عن الشرك ، رجموه بأمر الملك ، وقتلوه في بيت الله !

ثم ملك « اسعيا بن يواش » وأتىٰ بآلهة ساعير ، وسجد لها.

ثم ملك « أحاز » وسار بطريق المشركين ، وعمل تماثيل مسبوكة للبعليم وأغلق أبواب بيت الله..

وعلى هذا سار بنو إسرائيل ، يتقلبون في الشرك ، في بلاد هي عاصمة التوحيد والشريعة الموسوية والتوراة ، وفي شعب لم يبق للتوحيد والتوراة والشريعة فيه أثر.

فهل سيبقىٰ للتوراة الحقيقة أثر صحيح ، سليم من التحريف ، في مثل هذا الشعب وعلى امتداد هذه الحقب وحقب أخرىٰ تلتها ؟! وهم في أكثر هذه

الحقب كانوا بلا توراة ، يعبدون الأصنام ، فهم إذا عادوا إلى التوراة بعد كل هذا التقلب في الشرك ، وبلا نبي يجدد جذوة التوحيد فيهم ، فإنهم سيعودون إليها بما رسخ في أذهانهم ومخيلاتهم وتشرب في دمائهم من معتقدات توارثوها ، ونشأت عليها أجيالهم ، دون أن تصطدم بدعوة توحيدية خالصة وقوية تزيل آثار تلك الحقب الطويلة ، وتعيد العقول الى صفاء التوحيد والوحي الصادق.

حلقيا يعثر على التوراة :

بعد القرون المتوالية ، وفي السنة الثانية عشر من ملك « يوشيا » ابتدأ يطهّر أورشليم من معابد الشرك ، السواري والمرتفعات والمسبوكات ، وهدم بيوت المأبونين ، وبعد ما طهر بيت الله توجه لترميم البيت ، وعند إخراج الفضة المدخلة إلى بيت الله ، قال « حلقيا » الكاهن لشافان الكاتب : قد وجدت سفر التوراة في بيت الله !

فلما قرأ فيه شافان أمام الملك مزق الملك ثيابه ، وأمر جماعة من خواصه قائلاً : اذهبوا واسألوا الله من أجلي وأجل من بقي من يهوذا وإسرائيل على كلام السفر الذي وجد. ثم جمع كل الشعب الى بيت الله ووقف على منبره وقطع مع الله عهداً على عبادته وحفظ وصاياه وفرائضه حسب كلام العهد المكتوب في هذا السفر. [1]

إذن هي النسخة الوحيدة للتوراة لدىٰ شعب بني إسرائيل.

ولكن عمليات الترميم قد حدثت قبل هذا التاريخ أكثر من مرّة ، ومنها المرة التي وضعت فيها الفضة في البيت ، فلماذا لم تكتشف التوراة آنذاك ؟!

لقد جاء حلقيا بهذا النبأ في وقت مناسب ، كان فيه بنو إسرائيل في أمسّ

---

(١) سفر الملوك ـ الفصل ٢٢ و ٢٣ ، سفر أخبار الأيام الثاني ـ فصل ٣٤.

الحاجة إلى وحدتهم القومية ، وفي زمن ملك كان يبحث عن عبادة إله واحد ، ويرفض الشرك ويهدم الأصنام ، فوجد في هذا الاكتشاف ما ترتاح إليه نفسه ، دون أن يفكر في التحقيق في شأن هذا السفر ومصدره الحقيقي وتاريخه !

ومن هنا ابتدأ عهد هذه التوراة بين بني إسرائيل.

أخطاء في توراة حلقيا :

تلقىٰ بنو إسرائيل هذه التوراة تلقيهم للمقدّس ، فلما اكتشفوا فيها أخطاء لغوية كثيرة لم يجرؤوا على أكثر من وضع التصحيح في حواشيها ، ومن هذه الأخطاء التي تم تصحيحها في الحواشي :

١ . أخطاء بنقصان في الحروف ، في أحد عشر موضعاً.

٢ . أخطاء بزيادة في الحروف ، في أربعة مواضع.

٣ ــ أخطاء في أبدال حروف بحروف أخرىٰ ، وتقديم حروف على اخرىٰ ، أي أخطاء املائية ، في نحو ثمانين موضعاً.

٤ . أخطاء كثيرة في التذكير والتأنيث ، والجمع والإفراد.

ثم جاءت التراجم فاعتمدت التصحيحات المكتوبة في الحواشي ، لكون تلك الأخطاء أخطاء ظاهرة لا يمكن التغاضي عنها.

ومثل هذه الأخطاء لا تجتمع في كتاب وحي يكتب باشراف النبي موسىٰ ، ثم يتناوله الأنبياء من بعده واحداً بعد الآخر ، دون الوقوف على شيء منها.

شواهد أُخرىٰ على التحريف :

١ ــ إن إرميا النبي ترك لبني إسرائيل كتاباً يؤمن اليهود والنصارىٰ بأنه

وحي إلهي ، وهو يشهد بصراحة على اليهود بتحريفهم للتوراة ، فيقول : « ووحي الله لا تذكروا بعد ، لأن وحي الله للرجل كلامه ، وقد حرفتم كلام الاله الحي رب الجنود ، إلهنا » (١).

ويقول أيضاً نافياً مزاعم اليهود بأنهم يحتفظون بالتوراة ، ومصرحاً بنسبتها الى الكتبة الكذابين ، ما نصه : «كيف تقولون حكماء نحن ، وتوراة الله معنا ! لكن هُوَ ذا للكذب عملها فلم كذب الكتبة » (٢).

وليس كلام أكثر صراحة من هذا على أن نصوصاً غير قليلة في هذه التوراة منتحلة ، وضعها كتبة كذابون.. وفي هذا الكلام شهادة دينية تاريخية. فهو كلام النبي عليه السلام ، الذي يشهد في عصره على ما وقع في العصور السالفة وعلى التوراة التي يراها عند أبناء قومه.

٢ ـ نموذج من المنتحل : ومن أبرز نماذج الوضع في التوراة الفصل الخاص بقصة وفاة موسىٰ عليه السلام ومدفنه ومناحة بني إسرائيل عليه ثلاثين يوماً ! (٣) فإذا كانت التوراة وحي الله الى موسىٰ ، فمن كتب هذا الفصل الذي يتحدث عن وفاة موسىٰ ودفنه وما جرىٰ بعده على بني اسرائيل ؟ هل أملاه موسىٰ عليهم بعد موته ؟ انه شيء من أخبار بني إسرائيل وتاريخهم ، فينبغي أن يوضع في أسفار العهد القديم ، لا في أهل التوراة التي هي وحي الله إلى موسىٰ عليه السلام .

---

(١) سفر ارميا . الفصل ٢٣ . العدد ٣٦.

(٢) سفر ارميا . الفصل ٨ . العدد ٨.

(٣) سفر التثنية . الفصل ٣٤.

الفقرة الثانية : تاريخ التوراة [١]

من هو مؤلف العهد القديم ؟

احياناً يكتفي مؤلف مقدمة الكتاب المقدس بأن يجيب بأن مؤلف كل هذه الكتب هو الرب ، لكي يسد الطريق على أي تساؤل ! وأحياناً اخرىٰ يضيف الى هذه الاجابة تصحيحاً يقول فيه : إن هناك تفاصيل قد أضافها بشر الى النص الاول ، وإن الطابع المشكوك فيه لفقرةٍ ما في هذا النص لا تحرّف الحقيقة العامة التي تنبع منه !

ولكن إذا حدث ورجع القارئ الى المؤلفات التي كتبها بعض رجال الدين للخاصة وليس لعامة الجمهور ، فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيداً مما كان يظن بداءة.

وهناك دراسات فيها معطيات دقيقة ، كدراسة ادموند جاكوب « العهد القديم » التي تعطي رؤية شاملة عن الموضوع.

يثبت جاكوب الى انه في البدء لم يكن هناك نصّ واحد فقط ، بل كان هناك تعدد في النصوص ، ففي القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً كان هناك على الأقل ثلاث مدونات للنص العبري للتوراة :

. النص المحقق الماسوري.

. النص الذي استخدم جزئياً في الترجمة الى اليونانية.

. النص المعروف بالسامري ، أو أسفار موسىٰ الخمسة.

ثم بعد ذلك في القرن الأول قبل الميلاد صار الاتجاه الى تدوين نصّ واحد ، ولكن تدوين نص الكتاب المقدس لم يتم إلّا في القرن الأول بعد الميلاد [٢].

---

(١) هذا المبحث أخذناه باختصار عن : القرآن والتوراة والإنجيل والعلم ــ دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة / موريس بوكاي.

(٢) موريس بوكاي / المصدر المذكور : ٢٠ . ٢١.

الأصول الأولى للتوراة :

يثبت خبراء التاريخ المتخصصون بدراسة العهد القديم أنه في حدود القرن العاشر قبل الميلاد تم تحرير النص المعروف بالرواية « اليهوية » التي شكلت في ما بعد بنية الأسفار الخمسة التي عرفت باسم أسفار موسى الخمسة.

وسمي هذا النص بالرواية اليهوية لأن اسم الله فيه هو « يهوه ».

ثم اضيفت الى هذا النص بعد ذلك الرواية الأخرىٰ للتوراة المعروفة بالهيمية (لأن اسم الله فيها هو « ألهيم »).

ثم جاءت الرواية الثالثة المعروفة بالكهنوتية ، والتي كتبها الكتبة الذين كتبوا كتاب حزقيال بعد موته ، وهي رواية خاصة بسفر التكوين ، أول اسفار التوراة الخمسة.

ويضيف بحاثة آخرون نصاً ثالثاً لسفر التثنية أيضاً ، وبهذا اذن يمتد تحرير نص أسفار موسى الخمسة على ثلاثة قرون بأقل تقدير. (١)

ثم تم بعد ذلك تأليف التوراة من التوفيق بين النصوص الثلاثة ، لكن التوفيق الذي حمل الكثير من الاضطراب ، وركز أصل الشبهة في نسبة هذا النص إلى موسى عليه‌السلام .

وقد نظم موريس بوكاي جدولاً مفصلاً لهذا التلفيق في الاصحاحات الأحد عشر الأولى من سفر التكوين ، أول أسفار التوراة ، نذكر منه أمثلة قليلة فقط ، فهو يقول :

« على سبيل المثال ، في ما يخص الخلق والطوفان والفترة التي تمتد من الطوفان وحتى ابراهيم ، وهي الفصول التي تحتل الأحد عشر فصلاً الأولى من سفر التكوين ، نرىٰ في رواية التوراة جزءاً من النص اليهوي ، يتبعه جزء من النصّ الكهنوتي ، وليس النص الإلهيمي حاضراً هنا ، ويظهر بجلاء تام هنا

---

(١) موريس بوكاي / مصدر سابق : ٢٦ ـ ٢٧ ، ٣٢.

تداخل وتعقد الاسهامات اليهوية والكهنوتية. أما في ما يتعلق بالخلق وحتى نوح (أي الفصول الأولى) فانتظامها بسيط : فقرة يهوية ، تعقب فقرة كهنوتية ، وهكذا من البداية حتى نهاية الرواية.

اما ما يتعلق بالطوفان ، وخاصة الفصلين السابع والثامن فإن تقسيم النص حسب مصادره يعزل فقرات قصيرة جداً قد تصل الى جملة واحدة ، في أكثر قليلاً من مئة سطر من النص الفرنسي ننتقل سبع عشرة مرة من مصدر لآخر. ومن هنا كانت تلك المتناقضات والأمور غير المعقولة التي تدرك عند قراءة هذا النص اليوم ». (١)

نتيجة البحث باختصار :

يقول بوكاي : ظلت اليهودية والمسيحية لقرون طويلة تعتبر أن موسىٰ نفسه هو كاتب التوراة ، أما اليوم فقد هجر هذا الفرض تماماً ، والكل يتفق على تلك النقطة ، ويتسلح بأدلة قاطعة ، ففي القرن السادس عشر أشار كارلتشاد الى استحالة أن يكون موسىٰ قد كتب بنفسه كيف مات ! (٢)

وَيَذْكُر بعد ذلك نقاداً آخرين يرفضون أُبوّة موسىٰ على الأقل لجزء من الأسفار الخمسة ، ويذكر على وجه الخصوص دراسة ريشارسيمون « التاريخ النقدي للعهد القديم » وفيها يؤكد سيمون على الصعوبات الخاصة بتسلسل الأحداث ، والتكرارات ، وفوضىٰ الروايات ، وفوارق الأسلوب في أسفار موسىٰ الخمسة. (٣)

---

(١) موريس بوكاي / مصدر سابق : ٣٤ ـ ٣٦.

(٢) سفر التثنية ـ الاصحاح ٣٤ ـ الآيات ٥ ـ ١٢.

(٣) موريس بوكاي / مصدر سابق : ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١.

الفصل الثاني

معالم في الانجيل

الانجيل المعروف أيضا بـ « العهد الجديد » ليس بكتاب واحد ، بل تألف العهد الجديد من أربعة أناجيل معروفة ، معتمدة عند الامة النصرانية ، وهي : إنجيل متّى ، إنجيل مرقص ، إنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا. فإذا أطلق لفظ الانجيل فالمراد به هذه الاناجيل الاربعة ، على الرغم من وجود كتابات (أناجيل) أخرى تكشف عن الكثير من حقيقة الديانة المسيحية ، لكن اتباع العهد الجديد لم يذعنوا لها.

وهذا الفصل يسلط الضوء على معالم اساسية في الاناجيل الاربعة ، وما وراءها مما هو ضروري لاكتمال الصورة ، وباختصار مناسب.

١ . تاريخ الاناجيل

لم يكن كتّاب الاناجيل الاربعة شهود عيان على حياة المسيح ، كما يعتقد المسيحيون ، ولم تظهر هذه الاناجيل في عهد المسيح ، ولاقريباً منه بسنين قليلة ، بل تراوح ظهورها بين ٧٠ إلى ١٠٠ سنة بعد السيد المسيح ، وكان أولها ظهورا انجيل مرقص ، ثم تلاه متّى ، ثم لوقا ، ثم يوحنا [1].

---

(١) موريس بوكاي / مصدر سابق : ٧٨ ، نظرة عن قرب في المسيحية / بربارا براون : ٦٦.

وإنجيل مرقص الذي هو أقدم هذه الاناجيل هو أيضا أقصرها ، ولكنه ليس كتاب أحد الحواريين ، بل هو على الأكثر كتاب حرره تلميذ لأحد الحواريين [١]. يؤكد هذا أنه على الرغم من الاعتراف به كانجيل كنسي ، إلّا أن محققي المسيحية المحدثين يعدون خاتمته (الاصحاح ١٦ ، الآيات ٩ ـــ ٢٠) كمؤلف مضاف ، وتشير الترجمة المسكونية إلى هذا بشكل صريح [٢].

أما إنجيل متّى فيحتل المكانة الاولى من بين الاناجيل الاربعة في نظام ترتيب أسفار العهد الجديد ، إذ جاء هذا الانجيل وكأنه امتداد للعهد القديم بشكل ما ، يقول المعلقون على الترجمة المسكونية : إن هذا الانجيل كتاب يثبت أن المسيح يكمل تاريخ بني إسرائيل ، ولكي يحقق متّى هذا الغرض فإنّه يستشهد دائماً بفقرات من العهد القديم تشير إلى أن المسيح يتصرف كالمسيح الذي ينتظره اليهود [٣].

من هو متّى ؟

يقول بوكاي : لنقل صراحة أنه لم يعد مقبولاً اليوم القول إنه أحد حواريي المسيح بالرغم من أنه يعرّف بأنه «كان عشاراً أو جابياً بكفر ناحوم عندما دعاه المسيح ليجعل منه أحد تلامذته ». وذلك ما كان يعتقده آباء الكنيسة. ولكن لم يعد أحد يعتقد هذا في عصرنا. هناك نقطة لاجدال فيها وهي أن هذا الكتاب يهودي ، فمفردات كتابه فلسطينية ، اما التحرير فيوناني. ويقول

(١) موريس بوكاي / المصدر نفسه : ٨٦.

(٢) موريس بوكاي : ٨٩.

(٣) موريس بوكاي : ٨٢.

ا. كولمان إن الكاتب ، أي متّى ، يخاطب « أناسا ، وإن كانوا يتحدثون اليونانية ، فإنهم يعرفون العادات اليهودية واللغة الآرامية » [1].

أما بالنسبة للمعلقين على الترجمة المسكونية فإن أصل هذا الانجيل يبدو كما يلي : « يقدر غالبا أن انجيل متّى قد كتب بسوريا ، وربما بأنطاكيا أو بفينقيا ، ففي هذه المناطق كان يعيش عدد كبير من اليهود وقد يمكن أن نستشف معركة فكرية ضد اليهودية المعبدية الاورثوذكسية الغريزية التي ظهرت بالمجمع الكنسي اليهودي بجامينا في نحو عام ٨٠ م ، في ظل هذه الظروف يكثر عدد الكتاب الذين يؤرخون للأنجيل الأوّل ما بين عامي ٨٠ ، و ٩٠م ، أو ربما قبل ذلك بقليل ، ولايمكن الوصول إلى يقين كامل في هذا الموضوع.

ولما كان اسم المؤلف غير معروف بالتحديد ، فالأنسب هو الاكتفاء ببعض الخطوط المرسومة في انجيل متّى نفسه ومنها : أن الكاتب معروف بمهنته ، وأنه متبحر في الكتب المقدسة والتراث اليهودي ، وأنه يعرف ويحترم رؤساء شعبه اليهود ، وإن أغلظ في خطابه لهم ،كما أنه استاذ في فن التدريس ، وفي إفهام قول المسيح لمستمعيه مع تأكيده الدائم على النتائج العملية لتعاليمه. وأنه يتفق جيداً مع ملامح يهودي متأدب اعتنق المسيحية ، وهو معلم حاذق « يخرج من كنزه جديداً وقديماً » ، كما يشير إلى هذا إنجيله نفسه (الإصحاح ١٣ ، الآية ٥٢). تلك صورة بعيدة كل البعد عن صورة الموظف البيروقراطي بكفر ناحوم الذي يطلق عليه مرقص ولوقا اسم ليفي ، والذي اصبح واحداً من

---

(١) موريس بوكاي : ٨٣.

حواريي المسيح الاثني عشر ... [١].

ويتفق الجميع على الاعتقاد بأن متّىٰ قد كتب انجيله اعتماداً على مصادر مشتركة بينه وبين مرقص ولوقا. ولكن روايته تختلف ، في نقاط جوهرية كما سنرىٰ فيما يلي : ومع ذلك فقد استخدم متّىٰ بشكل واسع إنجيل مرقص الذي لم يكن أحد حواريي المسيح [٢].

من هو لوقا صاحب الانجيل الثالث ؟

لقد أراد بعضهم التعرف على هويته في شخصية الطبيب الذي يحمل اسم لوقا ، والذي يذكره بولص في بعض رسائله. لقد كان هناك لوقا ما قد رافق بولص في رحلاته. فهل هو نفس الشخص ؟ إن ا. كولمان يعتقد ذلك.

ويمكن تقدير تاريخ انجيل لوقا بالنظر إلى عوامل عدة. فقد استعان لوقا بانجيل مرقص ومتّىٰ. وكما تقول الترجمة المسكونية فيبدو أنه قد عايش حصار القدس وتدميرها تحت جيوش تيتوس عام ٧٠ م. وعلى ذلك يكون الانجيل لاحقاً على ذلك التاريخ. ويحدد النقاد الحاليون غالباً تاريخ تحريره بما بين ٨٠ ـ ٩٠ م. ولكن هناك معلقين آخرين ينسبونه إلى تاريخ أكثر قِدماً [٣].

وأخيراً يختلف « **انجيل يوحنا** » جداً عن الاناجيل الثلاثة الأخرىٰ ، إلى درجة أن الاب روجي في كتابه « **مقدمة إلى الانجيل** » ، وبعد أن علّق على الاناجيل الاخرى ، يعطي صورة معبرة عن هذا الانجيل الرابع : «إنه عالم

---

(١) موريس بوكاي : ٨٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) موريس بوكاي : ٩١.

آخر ». والواقع أنه كتاب مختلف تماماً : فهو يختلف في ترتيب وفي اختيار الموضوعات والروايات والخطب ، وبه اختلافات أسلوبية وجغرافية ، وأخرى خاصة بالتعاقب الزمني للأحداث ، بل إنه يحتوي على اختلاف في الآفاق اللاهوتية [(١)].

وهذا الانجيل هو آخر الأناجيل الأربعة تدويناً ، وقد كتب بعد سنة ١٠٠ م ، فصاحبه يوحنا إذن ليس هو يوحنا الحواري الذي تتحدث عنه الأناجيل [(٢)].

ماذا قبل الانجيل الأول ؟

من أين استمد مرقص مادة كتابه ، إذا كان يُشَك في كونه من حواريي المسيح ؟

إن الحقيقة التاريخية التي تتحدث عن هذا السر ستؤكد مرة أخرى أن مرقص لم يكن حوارياً للمسيح. فثمة حقيقة معترف بها تكشف عن أن المؤسس الأوّل لمادة الانجيل التي أخذها مرقص ، ثم متّىٰ ولوقا ، اللذين جاء كتاباهما مشابهين كثراً للانجيل الأوّل ، حتى عرفت بالاناجيل المتشابهة ، إن المؤسس الأوّل لهذه المادة هو رجل آخر ، ورجل تدور حوله أسئلة شتىٰ.

لقد ولد شاؤول في طرطوس غير متأخر كثيراً عن ولادة عيسىٰ نفسه. وقد أصبح شاؤول عضواً في طائفه يهودية تسمّىٰ الفريسيّين (تتميز بتمسكها الأعمىٰ بالمظاهر والطقوس).

إن « نسور الشريعة » هؤلاء اصبحوا مدفوعين بالتعصب في ملاحقة « النصارى » ، وبعد إعدام اصطيفان ابتدأ شاؤول يأخذ دوراً فعالاً جداً في هذا المضمار. لقد كان أداؤه لهذا الدور من القوة بحيث تم تعيينه لوظيفة رئيس

---

(١) موريس بوكاي : ٣٩ و ٩٥.

(٢) موريس بوكاي : ١٢٤.

الـــوكلاء في القـــدس ، وقـــد زود بالوثـــائق الضـــرورية ليتوســـع في « التطهـــير » إلى المدن المجاورة.

وبعـــد مـــا يقـــارب الخمـــس ســـنوات مـــن صـــعود عيســـىٰ إلى الســـماء كـــان هـــذا الشـــاب المـــتحمس ذوالخمســـة والعشـــرون عامـــا في طريقـــه إلى دمشـــق ليختطـــف مجموعـــة مـــن النصـــارى ويعـــود بهـــم إلى القـــدس. وفي هـــذا الأثنـــاء حصـــلت لـــه رؤيـــا أدعى أنّ عيسىٰ ظهر وسأل شاؤول لماذا هو مصرّ على اضطهاده ؟

لقـــد غـــير شـــاؤول اسمـــه إلى بـــولص ، وســـاح في الصـــحاري العربيـــة حـــتى يـــتمكن مـــن التفكـــير حـــول كيفيـــة المســـلك الـــذي سيســـلكه ليُنفّـــذ مااعتقـــد بأنـــه أمـــر من عيسى ليخرج إلى الناس ويبشّر.

وبالضـــبط مـــاذا كـــان عليـــه أن يعمـــل شـــكّل مســـألة عويصـــة لـــه ، لأنّ اليهـــود رفضـــوا عيســـىٰ ورســـالته. ولهـــذا فـــإن بـــولص اعتقـــد بأنـــه لايملـــك فرصـــة أكثـــر مـــن المســـيح لكســـب اليهـــود. ولـــذا صـــمّم علـــى تـــرك اليهـــود واســـتهداف الأميّـــين (غـــير اليهـــود) بـــدلاً عـــنهم. وحـــتى يســـتطيع أن يفعـــل ذلـــك فـــإن تحلـــيلاً فكريـــاً خلّاقـــاً مـــن جانبه كان ضرورياً بالتأكيد [١].

إن الرومـــان والاغريـــق الـــذين كـــانوا يـــألفون الســـكان غـــير اليهـــود في العـــالم الـــذي عـــاش فيـــه بـــولص كـــانوا وثنـــيّن يعبـــدون وفـــرة وافـــرة مـــن الآلهـــة والآلهـــات ، وإن معابـــد وتماثيـــل آلهـــتهم هـــذه كانـــت منتشـــرة في كـــل مكـــان. وكـــان القـــانون الروماني يحتّم على الناس ، باستثناء اليهود ، أن يقدّموا الولاء للآلهة.

وكـــان بـــولص يعـــرف أن أناســـاً لهـــم هكـــذا عقائـــد وثنيـــة عميقـــة ســـوف لـــن يقبلـــوا

---

(١) بربارا بروان / نظرة عن قرب في المسيحية : ١٩ ـ ٢٠.

فكرة تقول إن الرحمة والخلاص يمكن أن تأتي على يدي فرد من البشر يعتبر فقط شخصاً مستقيماً وإنساناً صالحاً. فإذا أراد بولص نتائج سريعة لمهمته فإنه كان يعرف أنه يجب عليه أن « يُلطّف أو يعدّل » الأمور قليلاً آخذاً بنظر الاعتبار ثقافة السكان غير اليهود [١].

لقد كان نجاح بولص ساحقاً في جهوده التبشرية اللاحقة خصوصاً مع التنازلات التي أعطاها لغير اليهود. وبالرغم من أن الديانة المسيحية تأخذ اسمها من عيسىٰ المسيح ، فأن بولص الطرطوسي يجب أن يعتبر هو مؤسسها الحقيقي لأنه الشخص الذي اختمرت في ذهنه كل عقائدها وأقام كنائسها في كل العالم المعروف في زمانه. والمسيحيون لاينكرون ذلك أيضاً : « ليس هناك شخص في التاريخ المسيحي يمكن أن يُضاهي أو أنّ له ذلك التأثير الهائل مثل ذلك الذي لشاؤول الطرطوسي » ففي كتابه « المئة : تقييم الأشخاص الأكثر أهمية في التاريخ » فإنَّ المؤلف مايكل هارت يوافق على ذلك بقوله :

« ليس هناك شخص لعب دوراً من الضخامة كالدور الذي لعبه بولص في إشاعة المسيحية » [٢].

ولكن هناك مشكلة كبيرة في هذه الصورة على أية حال ، وهي أنّ تعاليم بولص ، والمؤسس الحقيقي للمسيحية ، لايمكن العثور عليها في أي مكان من تعاليم عيسىٰ أو في تعاليم الأنبياء الذين سبقوه. ليس هذا فقط ولكن بولص لم يكن له إلّا اتصال قليل مع الحواريين الحقيقيين لعيسى ، والذين كان من

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٢٠ ـ ٢١.

(٢) المصدر : ٢١ ـ ٢٢.

الممكـــن أن يوجهـــوه إلى الطريـــق الصـــحيح. فهـــؤلاء لم يكونـــوا علـــى وفـــاق مـــع تعاليم بولص المبتكرة وأخبروه بذلك كلّما كان ذلك ممكناً.

وفي النهايـــة علـــى أي حـــال ، فـــإنّ نـــوع المســـيحية الـــتي نـــادىٰ بهـــا بـــولص إنّمـــا أحـــرز فيهـــا النجـــاح بفضـــل شخصـــيّته الســـاحرة ، إضـــافة إلى حقيقـــة أنـــه وأصـــحابه غلبـــوا الحـــواريين الحقيقيـــين لعيســـى في أمـــور مهمـــة كالوجاهـــة الاجتماعيـــة والثـــروة والتعلـــيم ، ولـــذلك حصـــل علـــى اتبـــاع كثـــيرين مـــن بـــين الســـكان غـــير اليهـــود. فالمسيحية . اليهودية ، أي عقيدة حواريي عيسىٰ ، لم تكن لها أيّة فرصة للنهوض [1].

ماذا أنجز بولص ؟

بقولـــه إن عيســـىٰ كـــان إلهـــاً ، فـــإنّ بـــولص اســـتطاع أن يتقـــرب إلى الجمـــاهير غـــير اليهوديـــة في عبـــارات كانـــت مألوفـــة لـــديها جيـــداً ، وكـــان نجاحـــه لـــذلك مؤكـــداً. إن حماســـه وشخصـــيته الجذابـــة مضـــافين إلى اســـتعداده التـــام ليضـــع حـــلاً توفيقيـــاً بـــين الرســـالة الحقيقيـــة لعيســـىٰ وبـــين العقائـــد الوثنيـــة ، قـــد قادتـــه لأن يخلـــع صـــفة « البُنـــوة الالهية » على عيسىٰ.

وهـــذه عقيـــدة مشـــكوك فيهـــا علـــى أحســـن الفـــروض ، لأن « البُنـــوة » تصـــف شخصاً قد خُلِق ، بينما « الالهية » تصف كائناً أزلياً في طبيعته.

وفي وقـــت لاحـــق فـــإن قـــادة الكنيســـة فكـــروا بطريقـــة أنيقـــة يُنهـــون بهـــا هـــذا اللـــبس بقـــولهم إن عيســـىٰ كـــان هـــو الله ــ مجســـداً علـــى هيئـــة انســـان ــ وهـــو كـــائن أزلي اختـــار أن يصـــبح إنســـاناً في رحـــم مـــريم. أي إن عيســـىٰ ـــ بكلمـــة أخـــرى ـــ لـــه طبيعتـــان : إلهيـــة وبشـــرية ، وقـــد تم اتحادهمـــا في شـــخص واحـــد. وربمـــا كانـــت نيـــة

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٢٢.

رجال الكنيسة حسنة ، ولكن مقولتهم هذه قادت فقط إلى التباس أكثر [(١)].

وبولص هو الذي وضع عقيدة الخلاص ، وبالدافع الأوّل نفسه ، ليحصل على معتنقين من بين الاميين (غير اليهود). اولئك الذين كانوا مترددين في أن يلتزموا بالمسيحية بسبب رغبتهم الحادة في تجنّب كل القواعد والأنظمة الموجودة في الشريعة الموسوية ، وهذا المعتقد الأخير ــ وهو الخلاص بالايمان بعيسىٰ وحده ــ كان في الواقع الأكثر جذرية ، ولكنه هو الذي أكّد نجاح مهمة بولص لأنّ هذا الاعتقاد أعطاهم بالضبط ما كانوا يريدون ، ولذا هرعوا إليه زُرافاتٍ ووحداناً [(٢)].

٢ . اختلافات الاناجيل

تقدمت الاشارة إلى التشابه الحاصل بين الأناجيل الثلاثة الأولى (مرقص ، ومتّىٰ ، ولوقا) حتى عرفت بالاناجيل المتشابهة ، وقد أُحصيت مواضع التشابه بينها على النحو الآتي :

. آيات مشتركة بين ثلاثة أناجيل : مرقص ، ومتّىٰ ، ولوقا = ٣٣٠ آية.

. آيات مشتركة بين إنجيلي مرقص ومتّىٰ = ١٧٨ آية.

. آيات مشتركة بين إنجيلي مرقص ولوقا = ١٠٠ آية.

. آيات مشتركة بين إنجيلي متّىٰ ولوقا = ٢٣٠ آية.

وقد تفرد كل واحد من هذه الأناجيل الثلاثة بعدد من الآيات ليس لها

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٠.

(٢) نظرة عن قرب في المسيحية : ٥٣.

ذكر في غيره منها ، وكما يلي :

. متّىٰ = ٣٣٠ آية.

. مرقص = ٥٣ آية.

. لوقا = ٥٠٠ آية.

أما إنجيل يوحنا فهو إنجيل آخر مختلف عنها في نصه وصياغته [1].

وفي مواضع الاختلافات الكثيرة بين الأناجيل هناك اختلافات صارخة تسجل تناقضاً داخلاً بينها ، ومن أمثلة هذه الاختلافات ، التناقضات :

١ ـ إن انجيل متّىٰ ينطوي على شجرة عائلة عيسىٰ (متّىٰ ١ : ٧) وهي تتابع شجرة العائلة إلى إبراهيم ابتداء من سليمان أحد أولاد داود ، بينما الشجرة الموجودة في إنجيل لوقا (٣ : ٣١) تتابع شجرة عائلة عيسىٰ إلى آدم من خلال ناثان ، وهو ابن آخر لداود مختلف تماماً عن سليمان. فحتّىٰ دراسة خاطفة سوف تظهر أسماء موجودة في سلسلة متّى لاتوجد في الشجرة التي يعطيها لوقا والعكس بالعكس.

والسلسلة التي يضعها لوقا بين إبراهيم وآدم عليهما السلام تتألف من عشرين اسماً فقط ، أي أن الفاصلة بين إبراهيم وآدم يؤلفها هؤلاء الأجداد العشرون ! فهل يمكن أن تتصور أن عشرين جيلاً فقط من البشر عاش قبل إبراهيم ؟!

ومن النقاط التي يجب ملاحظتها هنا ، هي أنّ إعطاء شجرة عائلة تنطوي على ذكر اسم لعيسىٰ من خلال يوسف (زوج أُمّه مريم) ينطوي على نوع من الغرابة ، وذلك أنّ عيسىٰ لم يكن له أب بشري ، وإنّ سلسلة أكثر انسجاما تكون

---

(١) موريس بوكاي : ٩٨.

عن طريق أمه مريم وليس زوجها يوسف [١].

٢ ــ إنّ إنجيل يوحنّا في تعارض مع الأناجيل الثلاثة الأُخرىٰ في كلّ وجه تقريبا من حياة عيسىٰ ورسالته ، مثل أين وُلد وترعرع وقصة تعميده ، وحتّى الأمكنة التي زارها ومدة رسالته.

وممّا يُقال في الحقيقة فإنّ ٩٢% من المادة الموجودة في إنجيل يوحنّا هي غير مذكورة في الأناجيل الأخرى.

ومن الاختلافات المثيرة للانتباه بين إنجيل يوحنّا وبين الأناجيل الثلاثة الأُخرى ، هي أنّ يوحنّا لايذكر شيئا مطلقا عن طريقة العشاء الربّاني.

ففي سرد يوحنّا للعشاء الأخير الذي يوجد في الفصول ١٣ . ١٧ يقوم عيسىٰ بغسل أقدام حوارييه ، وبعد ذلك يلقي عليهم خطبة طويلة حول مجيء شخص مواسٍ ومُعزٍّ COMFORTER من بعده. ولا يوجد حتّى مجرد ذكر في هذه الفصول حول تقديس الخبز والخمر التي تعتبر اليوم من أعمدة الديانة المسيحية [٢].

٣ ــ لا يتكلّم كلّ من إنجيل متّى ويوحنّا عن صعود المسيح إلى السماء. فبينما يتكلّم لوقا عن الصعود في إنجيله ، وفي كتابه الآخر المعنون بـ « أعمال الرُّسُل » ، فإنّ الوقت والمكان لهذا الصعود يختلفان في هذين الكتابين.

أمّا مرقص فهو أيضاً يتكلّم عن الصعود ، ولكن المختصين في الكتاب المقدّس يتّفقون على أنّ سجل هذه الفترة بأكمله كما جاء في إنجيل مرقص

---

(١) بربارا براون : ٦٢ ، موريس بوكاي : ١٠٨ . ١٢٢.

(٢) بربارا براون : ٦٣ ، موريس بوكاي : ١٢٤.

« ليس موثوقاً به ».

ففي مرقص (١٦ ، ١٩) فإنّ المسيح « قد رفع إلى السماء ، وجلس على يمين الله » أما لوقا الذي يذكر حدث الصعود ففيه (٢٤ ، ٥١) : « انفصل المسيح عنهم وحمل إلى السماء » ويحدد ذلك بيوم قيامة المسيح ، التي ظهر بعدها بحسب بعض الأناجيل كما سيأتي [1].

٤ ــ ومن أمثلة « التعاليم الغريبة » فإنّنا إذا نظرنا إلى العقيدة المسيحية في الغفران ، نجده يرتكز على مبدأ أنّ عيسىٰ هو كائن كامل من جميع الوجوده.

ويعجب المرء في ضوء ذلك ، كيف يبرِّر المسيحيون الإشارات في الأناجيل إلى أنّ عيسىٰ ليس شخصاً يتمتّع بالكمال تماماً ، فعلىٰ سبيل المثال :

أ ــ في إنجيل متّىٰ ١٦ : ٢٣ فإنّ عيسىٰ يُسمّي بطرس « الشيطان » و « مصيدة خطرة » عندما يحاول بطرس أن يُحامي عنه.

ب ــ في إنجيل مرقص ١١ ، يلعن عيسىٰ شجرة التين لأنّها ببساطة لم تكن تحمل أثماراً في غير موسمها ، وكان جائعا عندما عثر عليها.

ج ــ في إنجيل يوحنّا ٢ : ١ ــ ٤ يبدو عيسىٰ قليل الاحترام بوضوح عندما يتعامل مع والدته.

وفي متّىٰ ٢٨ : ١٩ يأمر عيسىٰ حواريّيه أن يذهبوا ويعمّدوا باسم « الأب والابن وروح القدس ». وللبرهان علىٰ أنّ هذه الكلمات الأربع هي من إضافات الكنيسة المتأخرة إلى نص كلام عيسىٰ من الممكن إيجاده من قراءة رسائل بولص أنّه يقول في هذه الرسائل : إنّ التعميد في أيّام الكنيسة الأُولى

---

(١) بربارا براون : ٦٣ ، موريس بوكاي : ١٢٩.

كان يتمّ باسم عيسىٰ وحده.

ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أنه في مرقص ١٦ : ١٥ عيسىٰ يقول : « اذهبوا أنتم إلى كل العالم واكرزوا [١] بالإنجيل على كلّ مخلوق ».

أمّا مرقص فإنّه يورد نفس الحادث في ١٦ : ١٥ كما يفعل متّىٰ في ٢٨ : ١٩ ، فأين بالضبط جاءت هذه الكلمات الزائدة عن تلك التي نجدها في سرد مرقص ؟ [٢]

٥ . من التناقضات الأخرى الإخبار عن ظهور المسيح بعد قيامته :

ففي يومنا هناك امرأة واحدة ، وهي مريم المجدلية ، أتت القبر ، فلم تعرف أين هو ... وفي إنجيل متّىٰ فإن ملاكاً هو الذي يعلن لمجموعة النساء أتين القبر أنهن سيرين المسيح بالجليل ، لكنه يقابلهن بعد لحظة على مقربة من القبر.

ويشير لوقا إلى ظهور المسيح ثلاث مرات بعد قيامته ، أما يوحنا فيقول إنّه ظهر مرتين على ثمانية أيام بمجمع بيت المقدس. وهذه كلها تتناقض مع الاشارات إلى ظهور المسيح في رسالة بولص الاولى (١٥ ، ٥ ــ ٧) إذ يقول : إنه قد ظهر لأكثر من خمسمئة شخص في وقت واحد ، ولكل الحواريين.

يقول بوكاي : إن التناقض جلي بين بولص ، وهو الشاهد المعاين الوحيد ، ولكنه مشكوك فيه ، وبين الاناجيل. ومن رواية لوقا في (أعمال الرسل) عن ظهور المسيح لبولص فهي تناقض ما يقوله بولص نفسه عن ذلك الظهور [٣].

---

(١) كَرَزَ : أي وعظ ونادى ببشارة.

(٢) بربارا براون : ٦٤.

(٣) موريس بوكاي : ١٢٧ . ١٢٨.

خلاصة القول في هذه الملاحظات :

يخلص المحققون المسيحيون المحدثون إلى أنّ مؤلفي الأناجيل أنفسهم لايزالون محل تساؤل. ورغم عدم تأكدهم حول مَن هم المؤلفون الحقيقيّون فإنّ المختصين في الكتاب المقدّس يتّفقون على أنّ متّىٰ ومرقص لم يكونا مؤلّفي الإنجيلين اللّذين يحملان اسميهما.

أمّا إنجيل لوقا فيعتقد أنه كتبه صديق لبولص من الأميين (غير اليهود) لم تتح له حتّى فرصة الالتقاء بعيسىٰ ، وإنّ الجزء الأوّل من كتابه حول المسيحية المبكرة هو الذي يحتوي أيضاً على كتاب « الأعمال ».

وبينما يقول العديد من المسيحيين إنّ إنجيل يوحنّا كتب من قبل أحد حواريي عيسىٰ الذي له هذا الاسم ، فإنَّ المختصّين في الكتاب المقدّس يتساءلون الآن وفي ضوء الحقيقة المعروفة من أنّ يوحنّا كتب إنجيله حوالي عام ١٠٠ ميلادية ، وأنّ يوحنّا الحواري كان قد استشهد في عام ٧٠ بعد الميلاد ، أي قبل أكثر من ٣٠ عاماً من كتابة هذا الإنجيل.

إنّ قبول نظريّة أنّ أشخاصاً غير حواريي عيسىٰ كتبوا الأناجيل الأربعة يحتّم قبول الاحتمال بأنّ هؤلاء المؤلفين لم يكونوا شهود عيان ولا سامعين لعديد من الأحداث التي كتبوا عنها.

وحتّى إذا رغب المرء أن يتعلّق بفكرة أنّ حواريي عيسىٰ كانت لهم يد في كتابة الأناجيل ، فإنّنا نعرف أنّهم لم يكونوا شهوداً على الأحداث التي جرت بعد أن أخذ عيسىٰ من قبل الجنود من حديقة « الجثمانية » ، لأننا نقرأ : « ثُمّ تركهُ الحواريون وهربوا ... » في كلّ من إنجيل متّىٰ ٢٦ : ٥٦ وفي إنجيل

مرقص ١٤ : ٥٠.

وباختصار فإنّ كثيراً ممّا نجد في الأناجيل مرتكز على القيل والسماع ، وليست هي كتابات رجال شهدوا تلك الأحداث.

ونقطة أُخرى يجب أخذها بعين الاعتبار بخصوص الأناجيل ، هي أنه لم يكتب ولا واحد منها في حياة عيسىٰ ، لأنه لم يُحتفظ بأي سجل عن فعّالياته خلال حياته. وفي الحقيقة فقد مرّت ٤٠ سنة تقريباً بين الوقت الذي غادر فيه عيسىٰ الأرض وبين ظهور أوّل إنجيل.

وعندما صدر إنجيل متّىٰ في النهاية ، فإنّ بولص كان قد مضى على وعظه ودعوته ما يقارب العشرين عاماً. لقد كتب رسالته إلى الرومان ، وفيها وضع كل معتقداته في المسيحية. وفي هذا الضوء نستطيع أن نرى أنّ تعاليم بولص قد أثّرت بلاشك على كاتبي الأناجيل إلى درجة كبيرة.

إنّ الأناجيل كتبت بأجمعها مابين ٧٠ ميلادية و ١٠٠ ميلادية ، وقد جاء مرقص أولاً ثمّ تلاه متّىٰ ثمّ لوقا ثمّ يوحنّا.

إنّ الأناجيل الثلاثة الأُولى تسير على نفس الخطوط عموماً. وفي الحقيقة فإنّ نظرة سريعة تظهر أنّ مؤلفي إنجيلي متّىٰ ولوقا استعارا كثيراً جدّاً من مرقص عندما كتاب إنجيليهما. وهذا هو السبب الذي جعل هذه الثلاثة تبدو وكأنها تسرد نفس الحكاية ، وبهذه الصفة أطلق عليها اسم « الأناجيل المتشابهة ».

أمّا إنجيل يوحنّا فإنه مختلف تماماً عن الثلاثة الأخرى ، وهو لايزال يثير جدالاً لأنّ مؤلّفه كان ببساطة مُهتمّا بقيمة عيسىٰ للديانة المسيحية أكثر من

اهتمامه بما قال عيسىٰ وما فعل.

وهكذا يمكننا أن نستنتج بصورة معقولة أنه بسبب عامل الوقت والكتابة من القيل والسماع وتأثير بولص ، فإنّ صورة عيسىٰ التي تعكسها لنا الأناجيل ليست هي صورة عيسىٰ كما عرفه التاريخ.

وبدلاً من ذلك فإنَّ هؤلاء المؤلفين كتبوا عن عيسىٰ « اسطوري » مستخدمين وجهة نظر لاهوتية « مَسَّحَتْ » الحقيقة التي جرت في زمان عيسىٰ. إنّ مؤلفي الأناجيل كانوا ملتزمين بالعقائد المسيحية ، وقد كتبوا وفي أذهانهم وجهة النظر هذه.

والنتيجة أنّ الأناجيل الأربعة تحتوي على أساطير أكثر من احتوائها على حقائق. إنّ رسالة المسيح السماوية كادت أن تُطمس تماماً تحت ركامٍ ممّا تمنّى الناس وأرادوا من عيسىٰ أن يقول وأن يفعل بدلاً ممّا جرى في الواقع من قبل المسيح (١).

٣ . إشكاليات عقائدية في الاناجيل الاربعة

الاناجيل الاربعة والتوحيد :

أكد المسيح عليه السلام منذ بعثته أنه إنسان ، ابن الانسان ، ليقطع الطريق أمام التأليه الذي كان يسري في عقائد أتباع الدينات الأرضية ، فمن قوله عليه السلام في نفسه : « إن ابن الانسان قد جاء ليستنقذ ذلك الذي ضاع » (متّىٰ ١٨ : ١١).

كما أكد دائماً أنه رسول مرسل من الله تعالى وأنه عبد من عبيده :

ــ « إن من يؤمن لي لا يؤمن بي أنا ، بل يؤمن بالذي أرسلني »

(١) بربارا براون : ٦٧.

(مرقص ٩ : ٣٧).

ـــ « لمـــاذا تســـمونني كـــاملاً ؟ فلـــيس هنـــاك كامـــل إلا واحـــد ، وهـــو الله » (مرقص ١٠ : ١٨).

ـ « إن هــذه هــي الحيــاة الخالــدة ؛ أن يعرفــوك أنــت الالــه الحــق وحــدك ، ويعرفــوا عيسىٰ المسيح الذي أنت أرسلته » (يوحنا ١٧ : ٢).

ـــ « والآن تريــدون أن تقتلــوني وأنــا إنســان قــد أنبــأتكم بــالحق الــذي سمعتــه من الله » (يوحنا ٨ : ٤٠).

لكــن هــذا الكــلام الواضــح لم يبــق هكــذا في عقائــد الاتبــاع اللاحقــين ، ومنــذ وقــت مبكــر تغــيرت هــذه الصــورة الــتي رسمهــا المســيح بنفســه ، لتلقــى في الأذهــان صورة أُخرى مغايرة تماماً.

«كــل ذلــك قــد تغــيّر فجــأة عنــدما ظهــر علــى المســرح واعــظٌ [بــولص] ادعــىٰ بأنه يتكلم باسم المسيح ، بعد سنوات قليلة فقط من رحيل المسيح» [1].

فظهــرت العقائــد الجديــدة ، ودخلــت الأناجيــل الأربعــة ، ولم يكــن الســيد المسيح قد قال بشيء منها ، وأهم هذه العقائد :

أولاً : « ابن الله المخلّص !» :

تتحــدث « عقيــدة الالوهيــة » في الأناجيــل ببســاطة أن عيســىٰ هــو ابــن الله ، كلمة الله تحولت إلى جسد !

ورغــم أنّ عيســى نفســه ، كمــا ذكــر ســابقاً ، لم يــدّعِ أبــداً أنــه « الهــي » فــإنّ بــولص أعطاه هذه الصفة لسببٍ واحد : ليحصل على معتنقين من بين غير اليهود.

---

(١) بربارا براون : ١٧ ـ ١٨.

فــالاميّون (غــير اليهــود) كــانوا وثنيــين درجــوا علــى عبــادة آلهــة وراءهــا أســاطير وخرافــات عجيبــة. فعــدد مــن آلهــة الــوثنيين في ذلــك الوقــت (مثــراس ، وأدونــيس ، واكتــيس ، وأوزيــريس مــثلاً) كــانوا جميعــا مــن ســلالة إلــه مســيطر حــاكم ، وكــل مــنهم مــات ميتــة عنيفــة في عمــر قصــير ورجعــوا إلى الحيــاة بعــد مــدة قصيرة حتى يخلّصوا شعوبهم. هكذا يعتقدون ، وبهذا شحنت أساطيرهم.

لقــد أخــذ بــولص ذلــك بنظــر الاعتبــار معطيــاً الــوثنيين شــيئاً مشــابهاً في المســيحية : لقــد أعطــى الالوهيــة إلى عيســىٰ قــائلاً بأنــه كــان ابــن الله (المســيطر) وأنــه هو أيضا مات من أجل خطاياهم.

وبعملــه هــذا فــإن بــولص « وفّــق » بــين تعــاليم المســيح وبــين الاعتقــادات الوثنية حتى يجعل المسيحية أكثر قبولاً عند الوثنيين.

إن بــولص لم يــذكر ، بــالطبع ، الأصــول الوثنيــة لهــذه العقيــدة ، إنمــا يســتطيع الوقــوف علــى هــذه الحقيقــة فقــط الشــخص الــذي يُجــري بحثــاً حقيقيــاً في ذلــك الوقت من التاريخ حول الناس وثقافاتهم [1].

إن بــولص عــبّر عــن هــذه العقيــدة بطــرق أخــرى ، وعلــى وجــه الخصــوص فإنّــه كان يعتقد أن هناك خمسة أسباب تبرّر اعتبار عيسىٰ إلها ، وهي :

١ . ان عيسىٰ ولد من عذراء دون « واسطة » أب.

وحــول هــذه فاننــا نســتطيع أن نــذكر قضــية آدم ، وهــو الانســان الأول. لقــد ولــد آدم دون واسطة أم أو أب ، ورغم ذلك فإنّه لا يعتبر إلهاً.

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٢٣.

٢ . ان عيسىٰ أظهر معجزات.

وجواباً على ذلك فإننا نستطيع أن نذكر موسى والنبي اليشع ، فالاثنان أظهرا معجزات مذهلة ، ولكن لا يعتبر أي منهما إلهاً.

وحقيقة أن عيسىٰ أظهر بعض المعجزات ليست في الواقع دليلاً على الالوهية ، كما أشار هو إلى ذلك مراراً عندما حصلت هذه الظواهر ، وقال إن القدرة على إظهار هذه الأعمال الخارقة قد جاءت من الله وليس منه. إن معجزاته جاءت لنفس الغرض الذي جاءت لتؤكده معجزات الأنبياء الذين سبقوه : لتعطي المصداقية لرسالته التي جاء بها إلى اناس معاندين.

٣ . ان عيسىٰ ذو شخصية لانظير لها.

لكن هذه الصفة لاترفعه من حقيقته الانسانية البشرية إلى الالوهية ، ولقد كان الأنبياء السابقون ولاسيما كبار الأنبياء الذين حققوا نجاحاً في زمانهم هم ذوو شخصيات لانظير لها ، كإبراهيم ، وموسى عليهما السلام [1].

٤ . ان عيسىٰ قام من بعد الموت.

نعم إن « الانتصار على الموت » عمل كبير ، ولكن ماذا عن النبي إيليّا الذي لم يمت أبداً بل رفع إلى السماء في عربة من النور والنار ؟ (سفر الملوك ٢ : ١١) هذا أمر فذّ ومذهل تماماً ، ورغم ذلك فإن إيليّا لايعتبر إلها [2]

مع مصطلح «ابن الله » :

إن عبارة « ابن الله » لم تكن شيئاً جديداً يطرق الأسماع لاول مرّة ، فقد استخدمت في العهد القديم لتشير إلى داود (سفر المزامير ٢ : ٧) وابنه سليمان

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٢٤.

(٢) المصدر نفسه : ٢٥.

(سفر التواريخ ٢٢ : ١٠) والاشارة إلى آدم (انجيل لوقا ٣ : ٣٨) في العهد الجديد. وفي خطبته الشهيرة « موعظة على الجبل » كما جاء تفصيلها في انجيل متّىٰ الجز الخامس ، فإن عيسىٰ يخبر مُستمعيه : « تبارك الذين يصنعون السلام لأنهم سيسمّون أبناء الله ».

وفي كل هذه الأحوال ، فإن تعبير « ابن الله » لم يكن يُقصد به التفسير الحرفي ، ولكن ليبرز الحب والرحمة من الله تجاه المتقين والصالحين. فـ « ابن الله » تعني زُلفى خاصة من الله ، ولايقصد بها علاقة عضوية مع الله [(١)].

ومع ذلك يُسارع المسيحيون إلى اعتماد التلميحات العديدة التي يصف فيها عيسىٰ نفسه بأنه « ابن الله » في انجيل يوحنّا ، وفق تفسيرهم هذا طبعاً ، ومن جهة أخرى فإنّهم يميلون إلى اهمال التصريحات العديدة الاخرى في نفس الانجيل عندما يصف عيسىٰ نفسه بأنه « ابن الانسان ».

وهذا يشير بوضوح ، مرة أخرى إلى حقيقة أن عبارة « ابن الله » ماكان يُقصد بها المعنى الحرفي. إن عيسىٰ كانت له زُلفى خاصة عند الله ... أنّه كان طفلاً لله بنفس المعنى الذي نحن فيه جميعاً أطفال الله.

وفي الآية ١٦ : ١٣ من انجيل متّىٰ يسأل عيسىٰ الحواريين من يظنّون انه هو ؟ والمسيحيون يذهبون إلى جواب بطرس الموجود في الآية ١٦ : ١٦ من انجيل متّىٰ التي يجيب بطرس فيها : « إنّك أنت المسيح ابن الله الحي ».

ومن المدهش أنه في ذكر نفس الواقعة تقول الآية ٨ : ٢٩ من انجيل

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٢٥ ــ ٢٦ ، وقد جاء في الحديث الشريف : كل الخلق عيالُ الله وخيرهم عند الله خيرهم لعياله (المترجم).

مرقص : إن جواب بطرس كان « إنّك أنت المسيح ».

كلمات قليلة اضيفت في انجيل متّىٰ مقارنة بانجيل مرقص ، ولكن ذلك أضاف تغييراً إلى كل معنى الكلمات (١) !

ثانياً : التثليث :

إنّ عقيدة التثليث تنص ببساطة على أن الالوهية تتكوّن من ثلاثة كائنات إلهية : الله « الاب » ، وعيسىٰ « الابن » ، و « روح القدس ».

إلى جانب الايمان بعيسى ، فإنّ مبدأ التثليث هو واحد من أهم المرتكزات الاساسية للمسيحية التي عليها تستند باقي العقائد المسيحية (٢).

فكرة التوحيد :

إن قاموس العالم الجديد لويبستر يُعرف « التوحيد » بأنه « العقيدة أو المذهب القائل بأنّ هناك إلهاً واحداً فقط » (٣).

إن الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحية والاسلام كُلها تدعي أنها تشارك في هذا المفهوم.

وقد أكد موسى هذا المفهوم في فصل من التوراة يسمّى الـ « شيما » أو العقيدة اليهودية في الايمان :

« اسمعوا يا بني اسرائيل : الربُّ إلهنا هو إلهٌ واحد » (سفر تثنية الاشتراع ٦ : ٤).

وبعد مرور ما يقرب من ١٥٠٠ سنة ، فإنّه أعيد حرفيّاً من قبل عيسىٰ

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٠.

(٢) هذه هي الكنيسة الكاثوليكية : ٤.

(٣) قاموس العالم الجديد ، لويبستر : ٨٧٩.

عندما قال : « ... الوصية الاولى من بين كل الوصايا هي : اسمعوا يا بني اسرائيل إن الرب إلهنا هو إله واحد» (مرقص ١٢ : ٢٩).

وعندما بعث محمد ﷺ بعد ستمائة سنة من رحيل المسيح فإنّه جاء بنفس الرسالة مرة أخرى عندما قال :

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ... ﴾ (١).

والمسيحية قد انحرفت عن عقيدة توحيد الله ، على أية حال ، في مذهبها المبهم والغامض ، وهو مذهب التثليث. كيف يكون الله واحداً عندما يُضاف عيسىٰ وروح القدس إلى الصورة ؟ (٢)

وبالرغم من أن هذا المبدأ ـ التثليث ـ لم يُوضع رسمياً من قبل بولص ، إلّا أنه ليس هناك شك بأن هذا المذهب لم يكن بعيداً عن تفكيره ، فإذا كان قد صنع من عيسىٰ ابناً إلهيّاً ، فإنّ من المنطق أن الحاجة تدعو إلى أبٍ إلهي. كما دعت الضرورة لوضع الترتيبات لأخذ روح القدس في الحسبان ، والذي كان بولص يعتقد أنه الواسطة لجلب وحي الله إلى الانسان (٣).

وجوهرياً فإنّ بولص سمى المكونات الاساسية ـ للتثليث ـ ولكن الكنيسة لم تضع المذهب بصورته النهائية إلّا في القرن الرابع للميلاد. وكما هي الحال مع عقائد أخرى اقترحها بولص للمسيحية فإن مبدأ التثليث الالهي هو أيضاً له جذور في العقائد الوثنية ، فإن عبادة النمرود ، التي بدأت في بابل ،

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ١٦٣.

(٢) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٢ . ٣٣.

(٣) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٣.

كانت باقية حيّة وقائمة في زمن بولص : فالنمرود الذي كان شاباً وسيماً ــ وقد تزوج من أمه ــ كان يُنظر إليه كإلهٍ من قبل قومه ، وقد اعتقدوا بأنّ بَعَل ، إله الشمس ، كان والده. وعندما مات النمرود في عمر مبكّر فإنّ أمه أصبحت هي رئيسة الطائفة. وهي التي جاءت بفكرة أنّ ابنها استمر في الحياة كروح.

وهكذا فإن « التثليث » كان قد ابتدع : بَعَل (الاب الإلهي) وأم النمرود ، والنمرودُ « الابن الإلهي ».

ومن المحتمل انه من هذه الاساطير كان بولص قد جاء بفكرته التثليثية عن كائنات إلهية تختص بالمسيحية [1].

كيف استقر « التثليث » ؟

يعتبر ترتوليان ، وهو قسٌّ ومحامٍ في كنيسة قرطاجة ، هو أول من استخدم كلمة ثالوث أثناء القرن الثالث عندما وضع النظرية القائلة بأن الابن والروح يشاركان في كيان الله ، ولكنهم جميعاً من كائن واحد من نفس تكوين الأب.

وقد استمر الجدال طويلاً حول هذه المسألة بين قادة الكنيسة الكبار : فبعضهم أيد ترتوليان بأن الثالوث يتألف من ثلاثة أشخاص متميزين أو ثلاثة جواهر ، بينما ادعى الآخرون أنّ الثالوث ماهو إلّا ثالوث رؤيا (أو وحي) وأن عيسىٰ كان رجلاً ملهماً بروح الأب التي كانت حالّة فيه.

ووجد الامبراطور قسطنطين نفسه معنيّاً بالنزاع في عام ٣١٨ بعد الميلاد عندما أخذ النزاع حول الثالوث يتفاقم بين رجلين من كنيسة الاسكندرية : أريوس الشماس وإسكندر المطران.

---

(١) المصدر نفسه : ٣٤.

ورغم أن الامبراطور لم يكن واثقاً من عقيدة الكنيسة ، ولكنه كان متأكداً من أن كنيسة موحدة كانت ضرورية لمملكة قوية. وعندما فشل المطران الذي عيّنه قسطنطين في فض النزاع ، فقد دعا الامبراطور إلى عقد أول مجمع مسكوني في تاريخ الكنيسة ، وقد تم ذلك في عام ٣٢٥ ميلادية في مدينة نيقية في آسيا الصغرى. وقد حضر الاجتماع ٣٠٠ من المطارنة. وبعد ستة أسابيع من النقاش تم تشكيل عقيدة التثليث : إن الله الذي يعتقد به المسيحيون قد صوّر على أنه يمتلك ثلاثة جواهر ـ أو طبائع ـ في هيئة الأب والابن وروح القدس. فالعقيدة التي خرج بها المجمع نصّت على ما يلي :

« نحن نعبد إلهاً واحداً في الثالوث ، والثالوث في التوحيد ، لأنّ هناك شخصاً للأب ، وآخر للابن ، وآخر لروح القدس. إنهم ليسوا ثلاثة آلهة ولكن إله واحد. فكل الاشخاص الثلاثة هم أزليون معاً ومتساوون معاً ، وهكذا فإن الانسان الناجي هو ذلك الذي يعتقد بالثالوث » [(١)].

ولكن المسألة لم تكن قد انتهت رغم الآمال الكبيرة التي علقها الامبراطور على انعقاد المجمع ، فإن أريوس ومطران الاسكندرية الجديد واسمه أثاناسيوس شرعا في الجدال حول المسألة حتى عندما كانت عقيدة نيقية في طور التوقيع. وهكذا أصبحت الأريوسية شعاراً منذ ذلك الحين لكل من لايُقرّ بالاعتقاد بنظرية الثالوث [(٢)].

وفي عام ٤٥١ للميلاد ، وفي مجمع خلقيدونيا المسكوني ، تم إقرار

---

(١) مقتطفات من عقيدة أثاناسيوس.

(٢) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٦ ـ ٣٧.

عقيدة نيقية القسطنطنية على أنها موثوقة رسميا ولاتقبل المناقشة ، والكلام ضد الثالوث يعتبر كفراً ، ومن يقترفه يستحق حكماً يتراوح بين التشويه والموت !

وهكذا فقد استدار المسيحيون ضد المسيحيين يشوّهون ويذبحون الآلاف بسبب الاختلاف في الرأي.

ورغم أن العقوبات القاسية التي مورست في أوقات سابقة قد توقفت الآن ، فإن الجدل حول عقيدة التثليث استمر حتى وقتنا الحاضر ، وعلى أيّة حال فإن غالبية المسيحيين لايبالون في هذا الجدل ، ويقفون بثبات وراء هذا المعتقد الاساسي من ديانتهم [(١)].

هكذا أصبح التثليث معتقداً أساسياً للمسيحية لكنه لا يستند إطلاقاً على قاعدة من الكتاب المقدّس ... إنّه من عمل الانسان أصلاً. وهو مثل آخر على الكيفية التي اقتبست بها العقائد الوثنية في الدوغما (العقيدة) المسيحية من أجل أن تُصبح المسيحية أكثر استساغة لأقوام وثنيين.

والاغلبية من المسيحيين عندما يطلب منهم أن يفسروا هذا المعتقد لا يستطيعون أن يجيبوا بأكثر من « إنني أعتقد بهذا لأنني أمرت أن أعتقد به » ، وهم يفسّرونه بأنه « سرّ » (من أسرار الدين يعرفه المرء بالإلهام وحده ولا يستطيع أن يفهمه فهماً كاملاً).

وحتى مؤسس هذا المعتقد واجه بعض الاشكالات في فهمه : فقد قيل إن أثاناسيوس ، وهو المطران الذي صاغ معتقد الثالوث ، قد اعترف بأنه كلما كتب

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٨.

أكثر حول هذه المسألة أصبح أقل قدرة على التعبير بوضوح عن أفكاره بخصوصها [(١)].

ثالثاً : عقيدة الغفران :

ان معتقد « الغفران » ينص ببساطة على أنّ عيسىٰ قاسىٰ ومات على الصليب من أجل أن يخلّص الانسان من نير الخطيئة.

وهي عقيدة تعتمد عليها العقائد المسيحية الأخرى تماماً في جوهرها ، كألوهية المسيح ، والثالوث ، والخلاص عن طريق الايمان.

وفي نظر بولص ، فإن البشر هم جنس من الخطاة ، وهذا « امتياز » مشكوك فيه ورثه الكل من آدم وخطيئته عندما أكل من الشجرة المحرّمة في جنة عدن. وهذه « الخطيئة الاصلية » صبغت كل الجنس البشري منذ آدم. وبسبب صبغة الخطيئة هذه فإن الانسان لا يستطيع أن يقوم هو بمهمة خلاصه ، ولكن عيسىٰ يستطيع أن يقوم بهذه المهمة لأنّه لم يخلق من نطفة رجل. ورغم ما في ذلك من ظلم منطقي لكل من الله والبشر ، فإن المسيحية تبنّتْ بحماس هذه العقيدة في الخطيئة الاصلية حتى تبرّر أفكارها عن رسالة المسيح بادّعائها أنّ رسالته هي التكفير عن أخطاء البشر.

وفي وضعه لهذه العقيدة عن الخطيئة الاصلية فإن بولص يبدو وكأنه ضرب صفحاً عن كلمات الله لحزقيا في الجزء ١٨ : ٢٠ ـــ ٢٢ : « إنّ الابن لايحمل وزر الأب ، وأيضاً لايحمل الأب وزر الابن » [(٢)].

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٣٨.

(٢) نظرة عن قرب في المسيحية : ٤٠ ـ ٤١.

وحسب ما يقوله بولص فإن مخلص البشرية جاء في هيئة عيسىٰ : « إنّ الله أرسل ابنه الوحيد إلى الأرض حتى يتحمل الألم والموت على الصليب ، لكي تكون إراقة دمه هي التي تكفّر عن خطايا البشر ». إنّ عيسىٰ كان هو الضحية القربانية.

إن بولص تذكّر القرابين التي يقدمها اليهود لله في العهد القديم ، وبطريقة ما قرّر أن هذه القرابين كانت تُقدّم حتى يتلقى الناس عفو الله عن ذنوبهم. وبينما كانت القرابين تُقدم من قبل اليهود القدماء من أجل التكفير ، فإنّ الأنبياء الذين جاؤوا بعد ذلك أمروا بأن يكف اليهود عن ذلك. ففي هُوشع ٦ : ٦ ، مثلاً ، نقرأ :

« لأنني أرغب في حُبّ ثابت وليس في قربان ».

إنّ الله أراد حباً ــ وهذا يأتي من إيمانٍ به وطاعة لقوانينه ــ ولم يطلب دماً ، إنّ عيسىٰ أكّد هذا المفهوم مرة أخرى في إنجيل متّىٰ ٩ : ١٣ حيث نقرأ :

« اذهبوا وتعلموا ماذا يعني هذا الكلام : أنا أرغب في الرحمة وليس في القربان »

أما بولص فقد ازاح كل هذا جانبا على أية حال قائلاً : إنّ عيسىٰ ، وهو كائن كامل ، أصبح « القربان الأكبر » عندما قدّم حياته على الصليب.

إن نظرية بولص هي أن الله لايمكن اعتباره عادلاً إلّا إذا اقتص من الخطاة ، والتوبة وحدها ببساطة لاتستطيع أن تقدم التبرير « الضروري » للذنوب المرتكبة. فالتكفير ــ كما يقول هو ــ ضروري لأنّ شرف الله وعدالته وقدسيته وكماله لايمكن أن تتحقق « بمجرد » التوبة.

وبالنسبة إلى المسيحي فإنّ عيسىٰ صالح الناس مع الله من خلال موته. لقد ألقى المؤلف المسيحي أنيس شروش نظرة متمعنة على هذه المسألة منذ

عــدة ســنين مضــت ، وقــد اســتنتج أنــه لــيس هنــاك تكفــير في الاعــتراف والتوبــة ، إذ من الذي سيدفع ثمن ذنوبنا [(١)].

وإحــدى الموضــوعات الــتي أرســاها بــولس وتــبرز مــرة بعــد مــرة في المسيحية وخاصة فيما يتعلق بعيسى ، هي موضوع حب الله.

وحســب مــا يقــول المســيحيون ، فــإن حــب الله هــو وراء صــلب ومــوت عيســىٰ ... وعلامــة حــب الله هــي الصــليب كمــا يقولــون. وحســب طريقــة تفكــيرهم فــإن الله هكــذا أحبّنــا بحيــث أرســل عيســىٰ وجعلــه يُعــاني ويمــوت حــتى يُخلّــص الجنس البشري من خطاياه [(٢)].

رابعاً : من الختان إلى التعميد :

لقــد ابتــدأ بــولص بالشــيء الــذي كــان الاميــون يُبــدون أكــبر رفــض لــه : « الختــان ». وحســب مــا يقــول بــولص فــإنّ إبــراهيم كــان صــالحاً قبــل أن يختــتن ، فلماذا الاهتمام بعد هذا بالختان ؟

والــذي أهملــه بــولص ، علــى كــل حــال ، كــان حقيقــة أن الله كــان قــد عقــد ميثاقــاً قبــل مئــات الســنين مــع إبــراهيم مختومــاً بــأوامر الله بالختــان مــن جانــب إبــراهيم وكــل ذريتــه مــن الــذكور بعــد ذلــك. ففــي ســفر التكــوين ١٧ : ١٤ فــإن الله كــان واضــحاً حول هذه المسألة :

« إن الطفــل البشــري غــير المختــون والــذي تكــون قلفتــه غــير مطهــرة ، فــإن هــذه النفس سوف تقطع من شعبه لأنه نقض ميثاقي ».

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٤١ ـ ٤٢.

(٢) نفس المصدر : ٤٣.

ولايستطيع المرء إلّا أن يعجب كيف استطاع بولص أن يزيح هذه الكلمات جانباً بهذه الجرأة. لقد أبدل الختان بالتعميد ، وهو رش الماء ، الذي أصبح الآن الواسطة لختم ميثاق بين الله وبين الفرد المسيحي. إن الأميين (غير اليهود) ، بطبيعة الحال ، كانوا قد اهتزوا طرباً لهذا.

بعد ذلك اختفت أُمور الشريعة الواحدة بعد الأخرى ، وفي فترة قصيرة من الزمن فإنّ شريعة الله أصبحت لاشيء أكثر من تحضير لقوة الخلاص من عيسىٰ للمسيحيين ... أي إن الشريعة أصبحت شيئاً لايستحق الاهتمام.

وبينما الأعمال الصالحة ــ حسب قول بولص ــ تأتي فطريا للمسيحي ، فإنّ عليه أن يعرف أن الأعمال الصالحة لوحدها سوف لن تكفي بنفسها في الخلاص ، فقط الايمان بقوّة الانقاذ في عيسىٰ يمكن أن تفعل ذلك [١].

٤ . ماذا عن الانجيل الخامس

« إنجيل برنابا »

هذا الانجيل الذي يتنكر له المسيحيون قاطبةً ، ماهي قصته ؟

يذكر التاريخ أن البابا جلاسيوس الأول ، الذي جلس على الاريكة البابوية سنة ٤٩٢ م ، أصدر أمراً بتحريم قراءة عدد من الكتب ، وذكر في عدادها : « إنجيل برنابا ».

ومن هذا نفهم أن إنجيل برنابا كان معروفا حتى ذلك العهد ، غير أن المعروف في تلك العهود القديمة أن الكتب الدينية الرئيسية لم يكن مسموحاً للعامة بقراءتها ، بل كانت حكراً على كبار رجال الدين وحدهم !

---

(١) نظرة عن قرب في المسيحية : ٥٢ . ٥٣.

ونفهم أيضاً أن في إنجيل برنابا تعاليم مخالفة لهذه التعاليم التي اعتمدتها الكنيسة في ذلك الوقت.

وفي كتاب « اكسيهومو » المطبوع بلندن سنة ١٨١٣ ، ورد فهرست للكتب التي ذكر المشايخ من قدماء المسيحيين أنها تنسب إلى المسيح وأتباعه ، وعد من هذه الكتب : إنجيل برنابا.

والمستشرق سايل ذكر في مقدمة ترجمته للقرآن الكريم أن الراهب اللاتيني « فرامرينو » ذكر أنه وجد رسائل للقديس « ابرينايوس » من الجيل الثاني للمسيح ، وفي جملتها رسالة يندّد فيها بيولص ، ويذمه ، ويسند تنديده إلى إنجيل القديس برنابا. فصار الراهب المذكور شديد الشوق إلى العثور على هذا الإنجيل ، وتوفق أخيرا للعثور عليه في مكتبة البابا سكتس الخامس. كان ذلك في أواخر القرن السادس عشر.

ثمّ ظهرت لهذا الانجيل نسخة إيطالية سنة ١٧٠٩ م ، ثمّ عثر في وقت قريب من هذا التاريخ على نسخة أسبانية لإنجيل برنابا ، نقلها الدكتور منكهوس إلى اللغة الانجليزية ، ودفع الأصل مع الترجمة إلى الدكتور هويت سنه ١٧٨٤ م.

ثم شاع خبر هذا الانجيل في القرن نفسه ، الثامن عشر ، ولم يعرف لانجيل برنابا نسخة عربية ، ولاذكر اسمه في تاريخ العرب والمسلمين على الاطلاق ، حتى قام الدكتور خليل سعادة بترجمته إلى العربية سنة ١٩٠٨ م.

من هو برنابا ؟

جاء ذكره في العهد الجديد ، فقالوا : إن اسمه يوسف ، أو يوسىٰ ، ثم سماه

الرسل « برنابا » أي ابن الوعظ. وأصله لاوي قبرصي ، كان له حقل باعه وأتى بالدراهم إلى الرسل (٤٤١ : ٣٦ و ٣٧). وأرسله الرسل ليجتاز إلى أنطاكية للوعظ والتثبيت على الايمان بالمسيح ، وكان رجلاً صالحاً وممتلئاً من الروح القدس والايمان (١١٤١ : ٢٢ و ٢٤).

خلاصة العقائد والموقف من بولص في انجيل برنابا :

يقول برنابا في أوليات كتابه : « إن الله العظيم افتقدنا في هذه الأيام الأخيرة بنبيّه يسوع المسيح ، برحمة عظيمة للتعليم ومن الآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى ، مبشرين بتعليم شديد الكفر ، داعين المسيح ابن الله ! ورافضين الختان ! الذي أمر الله به دائماً ، مجوزين كل لحم نجس ! الذين ضل في عدادهم أيضاً بولص ، الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسىٰ ».

وقال في آخره : « فإن فريقاً من الأشرار المدعين أنهم تلاميذ بشروا بأن المسيح مات ولم يقم ، وآخرين بشروا بأنه مات بالحقيقة ثم قام ، وآخرين بشروا ولايزالون يبشرون بأن يسوع هو ابن الله ! وقد خُدع في عدادهم بولص ».

إنجيل برنابا وذكر الرسول محمد ﷺ (١)

من بين الأناجيل الأربعة تفرد إنجيل يوحنا برد قصة العشاء الأخير للمسيح قبل القبض عليه ، ووصيته في هذا العشاء ، فأفرد لها أربعة أصحاحات (من ١٤ ــ ١٧) ، وتركز هذا الوصايا على اتباع الرجل الآخر الذي سيبعثه الله

---

(١) انجيل برنابا : ٦٣ ، فصل ١١ ، فقرة ٢٩ ، و ٦٩ ، فصل ٤٤ ، فقرة ١٩.

بعــد المسـيح ، ويسـميه إنجيـل يوحنـا الفـارقليط Paraclete وقـد كتـب يوحنـا باليونانيـة ، وقـد ترجمـت هـذه المفـردة بـالمخلّص والمعـزّي ، كمـا تعـني أيضـاً « مَـن لـه الحمـد الكثـير » أي الأحمـد والمحمّـد. أمـا نصـوص يوحنـا حـول الفـارقليط ، فهي :

قـال يسـوع : « إذا كنـتم تحبـونني فسـتعملون علـى اتبـاع أوامـري ، وسأصـلّي للأب الذي سيعطيني فارقليط آخر » (١ ، ١٥ ، ١٦)

و « رحيلـي فائـدة لكـم ، لأنـني إذا لم أرحـل فالفـارقليط لـن يـأتي إليكم » (١٦)

و « عنـدما سـيأتي روح الحقيقـة فسـيجعلكم ترقـون إلى الحقيقـة بكاملهـا ولأنـه لـن يـتكلم بإرادتـه ، وإنمـا سـيقول مـا يسـمع ، وسـيعرّفكم بكـل مـا يـأتي ، وسيمجّدني » (١٦)

هـذه الوصـايا كلهـا ، بـل الحـديث الـذي تضـمنها كلـه ، لـيس لـه أثـر في الأناجيل الثلاثة السابقة [١].

أمـا إنجيـل برنابـا فعلـى العكـس مـن ذلـك ، جـاءت فيـه الصـورة أكثـر وضـوحاً عنـدما تحـدث عـن هـذا الفـارقليط باسمـه الحقيقـي ، لابوصـفه ، وقـد اخـتص الفصـل (١٦٣) منـه لهـذا الموضـوع ، والـذي ابتـدأ بحـديث المسـيح لتلاميـذه بعـد صـلاة الظهـيرة ، وقـد جلـس بجانـب نخلـة ، وجلـس تلاميـذه تحـت ظـل النخلـة ، فابتـدأ يحـدثهم عـن الانسـان المصـطفى « الـذي تتطلـع إليـه الأمـم ، الـذي تتجلـى لـه أسـرار الله تجلياً » « فطوبى للذين سيصغون السمع إلى كلامه حتى جاء إلى العالم ».

---

(١) موريس بوكاي : ١٣٢ . ١٣٦.

أجاب التلاميذ : يا معلم ، من عسىٰ أن يكون ذلك الرجل الذي تتكلم عنه ، الذي سيأتي إلى العالم ؟ أجاب يسوع بابتهاج قلب : « إنه محمد رسول ، ومتى جاء إلى العالم فسيكون ذريعة للأعمال الصالحة بين البشر بالرحمة الغزيرة التي يأتي بها ، كما يجعل المطر الأرض تعطي ثمراً بعد انقطاع المطر زمناً طويلاً ، فهو غمامة بيضاء ملأت برحمة الله ، وهي رحمة ينثرها الله رذاذاً على المؤمنين كالغيث » [1].

وليس هذا هو النص الوحيد في إنجيل برنابا عن البشارة بنبي الاسلام ﷺ ، بل فيه نصوص متقدمة عن السيد المسيح ، ذكرها برنابا لوحده [2].

---

(١) إنجيل برنابا : ٢٥٢ ، الفصل ١٦٣.

(٢) إنجيل برنابا ، الفصل ١١ ، الفقرة ٢٩ ، والفصل ٤٤ ، الفقرة ١٩.

الفصل الثالث

معالم في القرآن الكريم

(١)

تاريخ القرآن

إذا كـان البحـث في تـاريخ التـوراة والانجيـل قـد أثبـت قضـايا مثـيرة للدهشـة ، تؤكـد تـدخل الكتّـاب في تبـديل بعـض النصـوص ، وإلغـاء نصـوص أخـرى. بـل في وضـع مـواد كاملـة ليسـت مـن وحـي السـماء ولا مـن حـديث الأنبيـاء ، فـإن الأمـر مـع القرآن الكريم مختلف تماماً.

لقـد امتـاز القـرآن الكـريم منـذ البدايـة وعلـى امتـداد نزولـه بمزيـة لم تكـن لغـيره مـن الكتـب السـماوية ، وهـي مزيـة الحفـظ والـتلاوة المكـررة ، والتنـافس فيهـا ، إضـافة إلى مزيـة التـدوين المباشـر لمـا ينـزل مـن الـوحي ، وبـأمر الرسـول صلى الله عليه وآله . سـاعد علـى ذلـك تـدرج القـرآن الكـريم في نزولـه ، آيـة أو آيتـين ، أو بضـع آيـات ، أو سـورة واحـدة قصـيرة أو متوسـطة ، يتلوهـا الرسـول علـى مسـامع أصـحابه ، فيتنافسـون في حفظهـا ، ويـأمر هـو كتّـاب الـوحي الـذين عيـنهم لهـذا الشـأن بتدوينها.

وسـاعد عليـه أيضـاً الموقـع الفريـد للقـرآن الكـريم في قلـوب المسـلمين ، فهـم

يترقبون نزول الآيات ويتلهفون لها ، فإذا ما سمعوها من فم الرسول استشرقت لها صدورهم ، والتفوا جماعات جماعات يحفظونها ويتبادلون الحديث في معانيها ، مع ما يأخذونه من الرسول نفسه من معانيها وأحكامها. كل ذلك كان في زمن امتازت به بيئة القرآن بقوة الحافظة والتفاخر فيها ، فكانت الحافظة عندهم بديلاً عن الكتابة ، حتى جاء القرآن الكريم فسارت الكتابة إلى جنب الحافظة ، تصون إحداهن الأخرى وتقويها وتؤكدها.

« وكان شعار الاسلام وسمة المسلمين حينئذٍ التجمّل والتكمّل بحفظ ما ينزل من القرآن الكريم ، لكي يتبصّر بحججه ، ويتنوّر بمعارفه وشرائعه وأخلاقه الفاضلة ، وتاريخه المجيد ، وحكمته الباهرة ، وأدبه العربي الفائق المعجز. فاتخذ المسلمون تلاوته لهم حجّة الدعوة ، ومعجزة البلاغة ، ولسان العبادة لله تعالى ، ولهجة ذكره ، وترجمان مناجاته ، وأنيس الخلوة ، وترويح النفس ، ودرساً للكمال ، وتمريناً في التهذيب ، وسلّماً للترقي ، وتدرباً في التمدّن ، وآية الموعظة ، وشعار الاسلام ، ووسام الايمان والتقدم في الفضيلة » [1].

لكل هذا كان حفظ القرآن وتلاوته شغل الصحابة وعبادتهم المفضلة بعد الفرائض ، فقد «كان لمسجد رسول الله ﷺ ضجّة بتلاوة القرآن ، حتى أمرهم الرسول أن يخفضوا أصواتهم لئلّا يتغالطوا » [2].

---

(١) آلاء الرحمن في تفسير القرآن / الشيخ محمد جواد البلاغي ١ : ٤٩ ، تحقيق مؤسسة البعثة ، قم ، ط ١ ، ١٤٢٠ هـ.

(٢) مسند أحمد ٥ : ٣٢٤ ، المستدرك على الصحيحين ٣ : ٣٥٦.

وكثر الحفاظ ، حفاظ السور المتعددة ، وحفاظ القرآن كله ، كاملاً ، وامتاز من بين هؤلاء عدد من الصحابة جمعوا القرآن كتابة اضافة إلى الحفظ ، ومن مجموع الأخبار التي تحدثت عن هؤلاء يصل مجموعهم إلى تسعة عشر ، ثمانية عشر رجلاً ، وامرأة واحدة هي ورقة بنت عبدالله بن الحارث [1].

من أدلة تدوين القرآن في عهد الرسول ﷺ :

الادلة كثيرة ومتواترة على أن القرآن الكريم كان يكتب في عهد الرسول ﷺ ومنذ وقت مبكر ، وغالباً ما كان يكتب بين يديه ، أو يعرض عليه ، نختار طائفة من هذه الأدلة :

١ ـ قال زيد بن ثابت ، أحد كبار الحفاظ والكتاب : «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع » [2]. أي نجمعه في كتاب واحد من مجموع الرقاع التي كتبت عليها سور القرآن وآياته وقت النزول ، وهي متواترة عند مئات الأصحاب. وهو كلام واضح في الكشف عن مرحلتين للتدوين ؛ مرحلة أولى مبكرة ومباشرة ، تدون فيها الآيات والسور المنزلة على الرقاع ، ثمّ مرحلة ثانية يتم فيها جمع آيات السور وترتيبها بإشراف الرسول ﷺ في كتاب واحد.

٢ ـ قال زيد بن ثابت نفسه : كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ ... فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرة ، فاكتب وهو يملي عليّ ، فإذا فرغتُ قال :

---

(١) سلامة القرآن من التحريف / علي موسى الكعبي : ٩٢ ـ ٩٣ ، إصدار مركز الرسالة ، قم ، ط ١ ، ١٤١٧ هـ.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢ : ٢٢٩ و ٦١١.

اقرأه. فأقرؤه ، فإذا كان فيه سقط أقامه ، ثم أخرج إلى الناس [١].

٣ ـــ قال عبد الله بن عباس ، وكان له مصحف جمعه بنفسه : إن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه الشيء دعا من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا [٢].

٤ ـ وقد كان تدوين القرآن عملاً مبكراً جداً ، مصاحباً لنزوله ، تدل عليه القصة الشهيرة في إسلام عمر بن الخطاب ، إذ وجد عند اخته وزوجها صحيفة مكتوب عليها سورة الحديد ، وصحيفة أخرى مكتوب عليها سورة طه [٣]. فلم يكن المسلمون الأوائل يعتمدون على الحافظة وحدها ، بل اعتمدوا التدوين المبكر أيضاً.

٥ ـــ تفيد طائفة من الأحاديث أن المصاحف كانت موجودة على عهد رسول الله ﷺ ، متوافرة ، عند المسلمين ، حتى لو كان بعضها يحتوي على بعض سور القرآن لاكلها ، فقد كانت هذه المصاحف وسيلتهم في التلاوة اليومية للقرآن الكريم ، وطائفة الأحاديث الواسعة التي تؤكد هذا ، تؤكد قبله على حثّ الرسول نفسه ﷺ على كتابة القرآن وجمعه ، ومن هذه الأحاديث النبوية الشريفة :

. « النظر في المصحف عبادة ».

. « أديموا النظر في المصحف ».

---

(١) مجمع الزوائد ١ : ١٥٢.

(٢) الجامع الصحيح للترمذي ٥ : ٢٧٣ ، المستدرك ٢ : ٢٢٢ ، مسند أحمد ١ : ٥٧ و ٦٩ ، تاريخ اليعقوبي ٢ : ٤٣.

(٣) الموسوعة القرآنية ١ : ٣٥٢ ، والقصة ثابتة في سائر كتب السير.

ـ « أعطوا أعينكم حظّها من العبادة » قالوا : وما حظّها من العبادة ؟ قال ﷺ : « النظر في المصحف ، والمتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه ». ولاريب أنّ حظ العين محفوظ في المهمة الاولى « النظر في المصحف » ، فوجود مصحف يتلا منه القرآن كان مفضلاً على تلاوة من الحافظة ، ولا تخفى حقيقة الغرض الأهم من هذا وهي حفظ القرآن للأجيال القادمة [١].

هذه أدلة كافية على أن القرآن الكريم كان يدون في وقت نزوله ، ويجمع ويرتّب مباشرة باشراف الرسول ﷺ ، الأمر الذي وفّر له سلامته من النقصان ومن التحريف ومن التصرف. وإضافة إلى هذا فإن عملية مراجعة شاملة لكل ما نزل من القرآن كانت تجري سنوياً ، وفي السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ كررت هذه العملية مرتين ، وفي حينها كان القرآن قد اكتمل نزوله [٢]. هذا غير مبادرات الصحابة أنفسهم لعرض مصاحفهم على رسول الله ﷺ ، وقد عرف هذا في تاريخ عدد غير قليل منهم ، عدّهم الذهبي سبعة : « عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وأبو الدرداء » [٣]. ولايعني اشتهار أخبار هؤلاء السبعة أن الأمر كان مقصوراً عليهم ، بل قد يعني فقط أن الأمر معهم أكثر ثباتاً وشهرةً وأهمية.

---

(١) سلامة القرآن من التحريف / علي موسى الكعبي : ٩٣ . ٩٤.

(٢) راجع : صحيح البخاري ٦ : ٣١٩ ، مجمع الزوائد ٩ : ٢٣ ، كنز العمال ، الحديث ٣٤٢١٤.

(٣) البرهان في علوم القرآن / الزركشي ١ : ٣٠٦.

يتضح من كل هذا ، وهو بعض الأدلة الثابتة فقط لا كلها ، أن مهمة حفظ القرآن الكريم وتدوينه كانت واحدة من المهمات التي تبناها الرسول ﷺ بنفسه ، فأشرف عليها مدة حياته كلها ، فكأنه كان يرعى مؤسسة ناشطة مهمتها تدوين القرآن والتحقق المستمر من كل ما تم تدوينه بين الآونة والأخرى ، وهي مؤسسة عظمى تلك التي يرعاها الرسول المكرم بنفسه ، وينتمي إليها رجال من عمالقة الصحابة علماً ومعرفةً وإخلاصاً.

من هنا كانت المهمة اللاحقة ، وهي إعادة تدوين القرآن في مصحف واحد ، وبترتيب واحد ، هو الترتيب الذي عرضه الرسول الأكرم في عرضه الأخير ، مهمة يسيرة للغاية ، لم تتطلب إلّا أياماً معدودة في عهد أبي بكر ، أنجزها طائفة من هؤلاء النفر الذين كتبوا القرآن كله وعرضوه أكثر من مرة على الرسول محمد ﷺ « وقد كانت ألوف المصاحف رقيبة على الحفاظ ، وألوف الحفاظ رقباء على المصاحف ، وتكون الألوف من كلا القسمين رقيبة على المتجدد منها ، نقول الألوف ولكنها مئات الألوف وألوف الألوف ، فلم يتفق لأمر تاريخي من التواتر وبداهة البقاء مثل ما اتفق للقرآن الكريم »[(١)].

لعل هذه أول وأهم مزية امتاز بها القرآن على ما سواه من الكتب السماوية ، وخاصة التوراة والانجيل ، التي لم تحظ بشيء من هذه العناية لا في الحفظ ، ولا في التدوين ، الأمر الذي جعلها عرضةً لكل ما أصابها مما وقفت على أطراف منه.

يقول موريس بوكاي : إن لتنزيل القرآن تاريخا يختلف تماماً عن تاريخ

---

(١) آلاء الرحمن / البلاغي : ٥١ . ٥٢.

العهد القديم والأناجيل ، فتنزيله يمتد على مدى عشرين عاماً تقريباً ، وبمجرد نزول جبريل على النبي كان المؤمنون يحفظونه عن ظهر قلب ، بل قد سُجّل كتابةً حتى في حياة محمد.

إن التجميعات الأخيرة للقرآن التي تمت في خلافة عثمان ، فيما بين ١٢ ــ ٢٤ عاماً من بعد وفاة النبي قد أفيدت من الرقابة التي مارسها هؤلاء الذين كانوا يعرفون أن النصّ منذ ذلك العصر قد ظلّ محفوظاً بشكل دقيق.

إن القرآن لايطرح مشاكل تتعلق بالصحة [1].

هذا المزية حفظت للقرآن الكريم مزيتيه اللاحقتين لها ، وهما : إعجاز القرآن ، وخلوه من الاختلاف والتعارض والتناقض الذي رأينا بعض أمثلته في التوراة والانجيل. فإعجاز القرآن في نصه الموحىٰ ونسقه الموحىٰ لم يكن يتحقق له الحفظ إلّا بهذا الاسلوب الذي تم فيه حفظ القرآن وتدوينه ، فبقي النص القرآني ثابتاً كما أنزل في كل مفرداته ، وليس آياته فقط ، وهذه مزية لايستطيع أن يدعيها أحد للتوراة أو للانجيل.

ثم عدم الاختلاف أيضاً ، وعدم التعارض ، هو الأمر الآخر الذي سيترتب على حفظ النص المنزل بحرفه ومفردته ونسقه وسياقه ، دون أدنى مجال لتصرف بشري فيه ، وهذا ما تحقق للقرآن وحده ، بفضل ذلك الجهد الجبار المبكر والمتواصل ، وحرمت منه التوراة والانجيل لغياب هذا النوع من الجهد وانعدامه ، فكانت الابواب مشرعة للتدوين بالمعنى وبحسب القدرة على الحفظ والتذكر ، ناهيك عن احتمال تدخل الاهواء في الغض عن بعضها أو

---

(١) موريس بوكاي : ٣٠١.

التصرف في بعضها ، مما وقفنا على نماذج منه على كلا الكتابين.

فبقي القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [(١)] ولا يدخل إلى ساحته قدح في صحة نصوصه وثباتها وقطعيتها. وهكذا كان وعد الله تعالى مع القرآن : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [(٢)] و ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ [(٣)]. هذا العهد الذي لم يدعيه أحد من كتاب التوراة والانجيل ، ولو ادعاه لكان محلاً للنقد ، بل ربما للسخرية أيضاً.

هذه المزايا التي اختص بها القرآن جعلته في منأى عن كل اضطراب وتناقض في مضامينه عامة ، دون استثناء ، مما يوفر علينا مهمة البحث في قضايا عقائدية تناولناها كما هي في التوراة أو في الانجيل ، فالقرآن الموحى من الله تعالى حفظت نصوصه الموحاة بحرفها ، فجاءت معاني التوحيد فيه متسقة منتظمة منسجمة كل الانسجام ، فكلها تتحدث عن إله واحد ، خالق السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما ، لاشريك له ، متعالٍ على خلقه ، لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، عليم بذات الصدور وما تخفي الاعين ، لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، قادر ، مهيمن ، مريد ، فعال لما يريد.

وقد اصطفى من بين خلقه رسلاً وأنبياء بين الأمم ، في أجيالها المتعاقبة ، فكانوا جميعاً وبلا استثناء أكثر أبناء عهودهم كمالاً وحلماً وعلماً ومعرفةً ،

---

(١) سورة فصلت : ٤١ / ٤٢.

(٢) سورة الحجر : ١٥ / ٩.

(٣) سورة القيامة : ٧٥ / ١٧.

اختارهم الله لتبليغ رسالاته وهداية البشر ، فسدد خطاهم ، فكانوا على أتم الخُلُق وأكرمها ، أخلصوا قلوبهم لله الذي عرفوه أتم معرفة يبلغها بنو الانسان ، فكانوا النماذج المثلى في كل عهد وفي كل مكان. وهكذا اتسقت الصورة التوحيدية ، مع صورة النبوة وخصائص الأنبياء في القرآن الكريم ، على نحو لاينالـه قدح ، ولايشبهه شيء مما عرضته التوراة خاصة من قصص في غاية الغرابة والنكارة.

فالتوحيد في القرآن هو التوحيد الخالص النقي الذي يأخذ بمجامع القلوب ... والنبوّة في القرآن هي المهمة التي تحتل موقعها الحقيقي ومنزلتها العظمى دون خدش أو ريب أو اضطراب.

وهكذا جاءت سائر مواضيع العقيدة والأخلاق في القرآن ، في أعلى درجات النظم والتكامل والاتساق والانسجام ، على خلاف ما رأيناه في العهدين ووقفنا على أسبابه ومصادره.

(٢)

القرآن والعلم الحديث

نظرة مقارنة

نعود في هذا المبحث إلى موريس بوكاي الذي استوفاه في مئة وخمسين صفحة [(١)] ، بالرغم من وفرة الكتابات الاسلامية في هذا الاتجاه [(٢)] ، ذلك أن

---

(١) موريس بوكاي / المصدر نفسه : ١٥٠ ـ ٢٩٩.

(٢) نظير : تفسير الجواهر ، والاسلام يتحدىٰ ، والعلم والايمان ، والطب والقرآن ، والتكامل في الاسلام ، وغيرها كثير.

كتابة محقق مسيحي ستكون أدعى للقبول. وقد تناول بوكاي مباحث متعددة في هذا الباب أثبت في جميعها موافقة العلوم الحديثة لما عرضه القرآن من قضايا كونية ، وعضوية ، وتاريخية دقيقة ، مقدماً بالقول : « لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية ، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ، ومطابقة تماماً للمعارف الحديثة ، وذلك في نصٍّ كتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ».

ويؤكد موضوعيته بقوله : « في البداية لم يكن لي إيمان بالاسلام ، وقد طرقت هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة ، وإذا كان هناك تأثير ما قد مورس ، فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي حيث لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين ، وإنما عن المحمّديين لتأكيد الاشارة إلى أن المعني به دين أسسه رجل ! وبالتالي فهو دين عديم القيمة تماماً إزاء الله !! » [1].

ومن هذه المباحث المتعددة التي توقف عندها بوكاي ، نختار نماذج قليلة فقط ، مناسبة لهذا الكتيّب المختصر ، وكما بحثها هو واختار عناوينها ، مع الاختصار الشديد احياناً لما اخترناه أيضاً من مباحث :

المبحث الأوّل : خلق السماوات والأرض :

نقاط الاختلاف والتجانس مع رواية التوراة

يختلف القرآن عن العهد القديم من حيث إنه يقدم رواية كاملة عن

---

(١) موريس بوكاي : ١٥٠ . ١٥١.

الخلق. فبدلاً من الرواية الواحدة المستمرة نجد في أماكن متعددة من القرآن فقرات تذكر بعض جوانب رواية الخلق. وهي تشتمل على كثير أو قليل من التفصيلات حول أحداث الخلق. ولكي تكون هناك فكرة واضحة عن الطريقة التي سيقت بها هذه الأحداث ، لابد من تجميع الفقرات المتناثرة في عدد هام من السُّور. والقرآن يعالج بهذا الشكل عديداً من الموضوعات الهامة ، سواء أكان المقصود ظاهرات دنيوية ، أو سماوية ، أو مسائل خاصة بالإنسان تهم رجل العلم ، وسيجد القارئ في الصفحات التالية مجموعات الآيات الخاصة بكل موضوع من هذه الموضوعات.

يدّعي كثير من المؤلفين الأوربيين أن رواية القرآن عن الخلق قريبة إلى حد كبير من رواية التوراة [1] ، وينشرحون لتقديم الروايتين بالتوازي. إني أعتقد أن هذا مفهوم خاطئ ، فهناك اختلافات جلية ، ففيما يتعلق بمسائل ليست ثانوية مطلقاً من وجهة النظر العلمية نكتشف في القرآن دعاوى لايجدي البحث عن معادل لها في التوراة. كما أن التوراة ، من ناحية أخرى ، تحتوي على معالجات تفصيلية لامعادل لها في القرآن.

إن التجانسات الظاهرية بين النصين معروفة جداً ، فبين هذه التجانسات نجد في الوهلة الأولى أن ترقيم مراحل الخلق المتعاقبة هو نفسه في النصين ؛ فأيام الخلق الستة في التوراة تعادل الأيام الستة في القرآن. ولكن المشكلة ،

---

(١) رواية التوراة المقصودة هنا هي الرواية المسماة بالكهنوتية ، أما الرواية المسماة باليهودية فهي شديدة الإيجاز في نص التوراة الحالي. بحيث إنها لاتستحق الاعتبار في هذا المقام.

في الواقع ، أكثر تشابكاً وتستحق وقفة عندها :

تذكر رواية التوراة ، ودون أي غموض ، تمام الخلق في ستة أيام يتبعها يوم الراحة ، يوم السبت ، وذلك بالتجانس مع أيام الأسبوع. ولقد رأينا أن هذه الطريقة في السرد التي استخدمها كهنة القرن السادس قبل الميلاد تستجيب لنيات الحض على ممارسة سبت الراحة : فعلى كل يهودي أن يستريح يوم السبت [١] كما فعل الرب بعد أن عمل طيلة أيام الأسبوع الستة.

إن كلمة « يوم » كما يفهم من التوراة تعرف المسافة الزمنية بين إشراقين متواليين للشمس أو غروبين متواليين ، وذلك بالنسبة لسكان الأرض. إن اليوم ، وقد تحدد بهذا المعنى ، يرتبط وظيفياً بدوران الأرض حول نفسها. وواضح تماماً أنه من المستحيل منطقياً أن نتحدث عن « الأيام » بهذا المعنى ذلك أن وجود الأرض ودورانها حول الشمس ، لم تكن قد أنشئت بعد عند أول مراحل الخلق وذلك بحسب رواية التوراة.

أما إذا رجعنا إلى نصوص غالبية ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها ــ بالتجانس مع ما تعلمنا التوراة به ــ أن القرآن يقول هو أيضاً بامتداد عملية الخلق على مدة ستة أيام. ولا يمكن بالطبع أن نعتب على المترجمين أنهم قد ترجموا كلمة « يوم » بالكلمة المعادلة لأكثر المعاني شيوعاً للكلمة العربية. وهكذا تعبر عنها الترجمات عادة مادمنا نقرأ : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [٢].

---

(١) أتت كلمة « سبت » من فعل في العبرية يعني الأرتياح.

(٢) سورة الأعراف : ٧ / ٥٤.

وقليلة حقّاً ترجمات القرآن أو التعليقات التي تنبه إلى أن كلمة أيام ، في الواقع ، يجب أن تفهم على أنها تعني « مراحل ». بل لقد ادعى البعض القول بأنه إذا كانت نصوص القرآن الخاصة بالخلق قد قسمت مراحل الخلق في « أيام » فقد كان ذلك يهدف عن قصد إلى استئناف ما كان الكل ، من يهود ومسيحيين في فجر الإسلام ، يعتقد به ، وذلك تجنباً لمجابهة اعتقاد منتشر.

إن الكلمة مفردة تنحو إلى الدلالة على النهار أكثر منها للدلالة على فترة زمنية بين غروب الشمس وغروبها في اليوم التالي. أما إذا جمعت فلا تعني فقط أيام ، أي وحدات تتكون كل منها من أربع وعشرين ساعة ، بل تعني أيضاً دهراً طويلاً أو فترة من الزمن غير محدودة وإن طالت. ومن ناحية أخرى فمعنى « فترة زمنية » التي يمكن للكلمة أن تدل عليها موجودة أيضاً في القرآن : ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [١].

ومما هو جدير بالملاحظة أن الآية السابقة على الآية ٥ تذكر بالتحديد الخلق في ستة « أيّامٍ ».

﴿ ... فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [٢].

وهذا قد بهر كثيراً من المفسرين القدامي الذين كانوا لايملكون بالطبع أي معارف من تلك التي نملكها اليوم عن مدة مراحل تكوّن الكون ، فظن أبو السعود [٣] ، الذي لم يكن يملك معرفة عن اليوم كما يحدده علم الفلك

---

(١) سورة السجدة : ٣٢ / ٥.

(٢) سورة المعارج : ٧٠ / ٤.

(٣) مفسّر ، توفي سنة ٩٨٢ هـ.

بالاستناد إلى دورة الأرض ، أن من الواجب تصور تقسيم « مراحل » ليس إلى أيام بالمعنى الذي نفهم عادة بل إلى « نوبات ».

وهناك مفسرون محدثون قد أخذوا بهذا التفسير. فيوسف علي (١٩٣٤) في تفسيره لكل آية تعالج مراحل الخلق يصر على ضرورة اعتبار أن الكلمات التي تفسر في سياق آخر بمعنى أيام تفسر هنا في الواقع بمعنى « فترات طويلة » أو « عصور ».

فمن حقنا إذن أن نقبل ، فيما يتعلق بخلق العالم ، بقول القرآن ضمناً بفترات زمنية طويلة رقمها بالعدد ٦. ولا شك أن العلم الحديث لم يسمح للناس بتقرير أن عدد المراحل المختلفة للعمليات المعقّدة التي أدت إلى تشكل العالم هو ست مراحل ، ولكنه قد أثبت بشكل قاطع أنها فترات زمنية طويلة جداً ، تتضاءل إلى جانبها الأيام كما نفهمها وتصبح شيئاً تافهاً.

إن واحدة من أطول فقرات القرآن التي تتناول الخلق تذكر ذلك ، واضعة جنباً إلى جنب رواية خاصة بأحداث دنيوية وأخرى سماوية. إن في هذه الآيات يقول الله للنبي :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا

بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (١).

هذه الآيات الأربع من سورة فصّلت تقدم جوانب متعددة : تعني الحالة الغازية الأوّلية للمادة السماوية ، والتعريف الرمزي للسماوات بالعدد ٧ ، وسنرى معنى الرقم. ورمزيٌّ أيضا الحوار بين الله من جانب والسماء والأرض البدائيين من ناحية أخرى ، المقصود هنا هو التعبير عن خضوع السماوات والأرض للأوامر الإلهية بعد تشكلها.

وقد بدا لي أن هناك فقرة واحدة في القرآن تقرر بشكل واضح وجود ترتيب في أحداث الخلق ، ونعني بذلك هذه الآيات :

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (٢).

إن وصف نعم الله الدنيوية على الناس. ذلك الذي يعبر عنه القرآن ، في لغة تناسب مزارعاً أو بدوياً من شبه الجزيرة العربية ، مسبوق بدعوة للتأمل في خلق السماء. ولكن المرحلة التي مد فيها الله الأرض وأخصبها تأتي بالتحديد زمنياً بعد إنجاز عملية توالي الليل والنهار. المذكور هنا إذن هو مجموعتان من الظاهرات جزء منها أرضي والآخر سماوي ، وقد حدث كلاهما في اتصال مع الآخر. وبالتالي فذكر هاتين المجموعتين من الظاهرات يعني أن الأرض كانت بالضرورة موجودة قبل أن تمدّ ، وعليه فقد كانت موجودة حين بنى الله

---

(١) سورة فصلت : ٤١ / ٩ . ١٢.

(٢) سورة النازعات : ٧٩ / ٢٧ . ٣٣.

السماوات. وينتج من هذا فكرة المصاحبة الزمنية لنمو كل من السماوات والأرض بشكل تتداخل فيهما الظاهرتان. وبناء عليه فلا يجب أن ترى أي دلالة خاصة في إشارة النص القرآني إلى خلق الأرض قبل السماوات أو خلق السماوات قبل الأرض ، فمواضع الكلمات لا تبين وجود ترتيب تحقق الخلق في إطاره ، إلا أن تكون تفصيلات أخرى معطاة.

عملية تشكل الكون الأساسية وانتهاؤها إلى تكوين العوالم :

يقدم القرآن في آيتين خلاصة مركبة ومختصرة للظاهرات التي كونت العمليه الأساسية لتشكل الكون.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١).

ويدعو الله إلى التأمل في خلق الأرض ثم يأمر النبي بأن يقول :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ... ﴾ (٢).

ويتبع ذلك الوصايا بالطاعة التي أشير إليها أعلاه.

وسنعود فيما بعد إلى الأصل المائي للحياة ، وسندرس ذلك مع مشاكل بيولوجية أخرى مذكورة في القرآن. أما الآن فيجب الالتفات إلى ما يلي :

(أ) الدعوى بوجود كتلة غازية ذات جزيئات. فكذلك يجب تفسير كلمة « دخان ». إذ يتكون الدخان عموماً من قوام غازي. حيث تعلق به بشكل أكثر أو أقل ثبوتاً جزيئات دقيقة قد تنتمي إلى حالات المواد الصلبة أو حتى

---

(١) سورة الأنبياء : ٢١ / ٣٠.

(٢) سورة فصلت : ٤١ / ١١.

السائلة مع درجة في الحرارة قد تقل أو تكثر.

(ب) الإشارة إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة (يقول القرآن الرتق). ولنحدد جيداً أن « فتق » هو فعل القطع أو فك اللحام أو الفصل ، وأن « رتق » فعل اللحام ووصل العناصر بهدف تكوين كل.

هذا المفهوم في تفصيل الكل إلى أجزاء يتحدد بشكل دقيق في فقرات أخرى من القرآن ، وذلك بذكر عوالم متعددة. إن الآية الاولى من أول سورة في القرآن بعد فاتحة : ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ** ﴾ (١) هِيَ : ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (٢).

ويتكرر تعبير ﴿ **الْعَالَمِينَ** ﴾ عشرات من المرات في القرآن. وكذلك السماوات فهي تذكر باعتبارها متعددة ، وليس ذلك فقط في صيغة الجمع بل تذكر أيضا مع ترقيم رمزي وذلك بالاستعانة بالعدد ٧.

الرقم ٧ مستخدم ٢٤ مرة في كل القرآن لتعدادات مختلفة ، وكثيراً ما يعني التعدد دون أن نعرف بشكل محدد سبب هذا الاستخدام بذلك المعنى. إن الرقم ٧ يبدو عند اليونان والرومان وكان له نفس معنى التعدد غير المحدد. وفي القرآن يعود الرقم ٧ على السماوات بمعناها الصرف سبع مرات. كما يشير الرقم مرة واحدة بشكل ضمني إلى السماوات. كما يشير مرة واحدة إلى طرق السماء السبعة ، وبالنسبة لكل هذه الآيات يجمع مفسرو القرآن على أن الرقم

---

(١) سورة الفاتحة : ١ / ١.

(٢) سورة الفاتحة : ١ / ٢.

« ٧ » يشير إلى تعدد دون تحديد آخر [١].

السماوات إذن متعددة وكذلك الكواكب المشابهة للأرض. وليس أقل ما يثير دهشة قارئ القرآن في العصر الحديث أن يجد في نص من هذا العصر تصريحاً بإمكان وجود كواكب أخرى تشبه الأرض في الكون ، وهذا ما لم يتحقق منه الناس بعد في عصرنا.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [٢].

وبما أن الرقم « ٧ » يشير إلى تعدد غير محدود ، فيمكن استنتاج أن النص القرآني يشير بوضوح إلى أنه لايوجد إلا الأرض فقط ، أرض البشر ، بل هناك في الكون كواكب أخرى تشبه الأرض.

سبب آخر لإثارة دهشة قارئ القرآن في القرن العشرين ، تلك التي تشير إلى ثلاث مجموعات من المخلوقات وهي :

. تلك التي توجد في السماء.

. تلك التي توجد على الأرض.

. تلك التي توجد بين السماوات والأرض.

وإليكم بعض هذه الآيات :

---

(١) إلى جانب القرآن وفي نصوص عصر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله أو في نصوص القرون الأولى التالية التي أوردت أحاديث محمد رسول الله صلى الله عليه وآله نجد أن الرقم « ٧ » كثيراً ما يستخدم لمجرد الدلالة على التعدد.

(٢) سورة الطلاق : ٦٥ / ١٢.

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴾ [١].

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ [٢].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [٣].

إن الأشارة في القرآن إلى « ما بين السماوات والأرض » موجودة في آيات أخرى [٤].

بديهي قد يبدو هذا الخلق خارج السماوات وخارج الأرض والذي أشير إليه مرات عدة ، قد يبدو قليل التصور. ولكن ، لكي نفهم معاني تلك الآيات يجب الاستعانة بأحدث الملاحظات البشرية حول وجود مادة كونية « خارج المجرات » (Extra - galactique) كما يجب ، لنفس هذا السبب ، أن نتناول من جديد المعارف التي أثبتها العلم المعاصر حول تشكل الكون ـ منتقلين في

---

(١) سورة طه : ٢٠ / ٦.

(٢) سورة الفرقان : ٢٥ / ٥٩.

(٣) تبدو هذه المقولة التي تصرح بأن الخلق لم يتعب الله مطلقاً ، تبدو كأنها رد واضح على فقرة رواية التوراة التي ذكرناها في بداية هذا الكتاب ، والتي تقول بأن الله قد استراح في اليوم السابع بعد العمل الذي أنجز في الأيام التي سبقت ، والآية من سورة ق : ٥٠ / ٣٨.

(٤) راجع : سورة الأنبياء : ٢١ / ١٦ ، وسورة الدخان : ٤٤ / ٧ و ٣٨ ، وسورة النبأ : ٧٨ / ٣٧ ، وسورة الحجر : ١٥ / ٨٥ ، وسورة الأحقاف : ٤٦ / ٣ ، وسورة الزخرف : ٤٣ / ٨٥.

ذلك من الأبسط إلى الأعقد. وسيكون هذا موضوع الفقرة التالية.

ولكن ، قبل أن ننتقل إلى هذه التأملات العلمية الصرف يحسن أن نلخص النقاط الأساسية التي يعلمنا بها القرآن فيما يتعلق بالخلق. بالاستناد إلى ما سبق ، فهذه النقاط هي :

١ . وجود ست مراحل للخلق عموماً.

٢ . تداخل مراحل خلق السماوات مع مراحل خلق الأرض.

٣ ــ خلق الكون ابتداء من كومة أولية فريدة كانت تشكل كتلة متماسكة تفصلت بعد ذلك.

٤ . تعدد السماوات وتعدد الكواكب التي تشبه الأرض.

٥ . وجود خَلقٍ وَسيطٍ « بين السماوات والأرض ».

المادة الكونية المنتشرة بين النجوم :

إن عملية تشكل الكون الأساسية من تكاثف للسديم الأولي ثم من انفصاله إلى أجزاء كوّنت في الأصل كتلاً مجريّة بدورها تجزأت هذه الأخيرة إلى نجوم صنعت منتجات ثانوية هي الكواكب ، وقد تركت هذه الانفصالات المتعاقبة بين مجموعات العناصر الرئيسية ما يمكن تسميته بالبواقي ، وهذه البواقي تسمى علميّاً بالمادة الكونية المنتشرة بين النجوم ، وقد وصفت هذه المادة بأشكال مختلفة : فمرة توصف على أنها سُدُم براقة تنشر ضوءاً استقبلته من نجوم أخرى ، وقد تتكون من « غبار » أو « أدخنة » على حساب تعبير علماء الفلك ، ومرة أخرى توصف على أنها سُدُم مظلمة ذات كثافة شديدة الضعف ، أو على أنها مادة كونية منتشرة بين النجوم تتميز بأنها شديدة الخفاء ، وبأنها تعوق

المقاييس الفوتومترية في علم الفلك.

إن وجود جسور من تلك المادة بين المجرات لايشوبه أي شك ، وبرغم ندرة هذه الغازات ، وبسبب الفضاء الهائل الذي تحتله ــ إذ إن الفضاء الذي يفصل بين المجرات متناه في البعد ــ فإنها تستطيع أن تعادل كتلة قد تفوق مجموع كتل المجرات ، حتى وإن كانت هذه الغازات قليلة الكثافة. ويعلق ا.بواشو (A.Boichot) على وجود هذه الكتل المنتشرة بين المجرات أهمية أولى. فقد يكون من شأنها أن « تعدل إلى حد بعيد الأفكار الخاصة بتطور الكون ».

مقابلة مع المعطيات القرآنية عن الخلق :

ولنفحص الآن النقاط الجوهرية الخمس التي يعين القرآن عليها معلومات دقيقة خاصة بالخلق.

١ ــ لقد تخطى المراحل الست لخلق السماوات والأرض ، في قول القرآن ، تكوين الأجرام السماوية ، وتكوين الأرض ، والتطور الذي لحق بهذه الأخيرة بما جعلها بأقواتها قابلة لسكنى الإنسان. لقد وقعت الأحداث الخاصة بالأرض ، في رواية القرآن ، على أربع مراحل. ترى أيجب أن نرى في هذه المراحل معادلاً للعصور الجيولوجية التي يصفها العلم الحديث والتي ظهر الانسان في الرابع منها كما نعلم ...؟ ليس هذا إلا مجرد فرض. والله أعلم.

ولكن ينبغي ملاحظة أن تكوين الأجرام السماوية والأرض قد تطلب مرحلتين كما تشرح ذلك الآيات من ٩ إلى ١٢ من سورة فصلت ٤١. ويعرفنا العلم بأننا إذا أخذنا كمثال (وهو المثال الوحيد الممكن) اعتبار تكوين الشمس ونتاجها الثانوي ، أي الأرض ، نجد أن العملية قد تمت من خلال تكاثف

السديم الأولي وانفصالهما. وذلك بالتحديد ما يعبر عنه القرآن بشكل صريح عندما يشير إلى العملية التي أنتجب ابتداء من « الدخان » السماوي « رتقاً ثم فتقاً ». إننا نسجل هنا التطابق الكامل بين المعطية القرآنية والمعطية العلمانية.

٢ ــ أوضح العلم تشابك حدثي تكوين نجم (مثل الشمس) وتابعه ، أو واحد من توابعه (مثل الأرض). ألا يتضح هذا التشابك في النص القرآني مثلما رأينا ...؟

٣ ــ إن المطابقة واضحة بين مفهوم السديم الأولي في العلم الحديث ، والدخان على حسب القرآن للدلالة على الحالة الغازية الغالبة للمادة التي كونت الكون في هذه المرحلة الأولى.

٤ ــ إن تعدد السماوات ، الذي عبر عنه القرآن بالرقم الرمزي « ٧ » والذي رأينا دلالته ، يتلقى من العلم الحديث تأكيداً له ، وذلك بفضل ملاحظات علماء الفلك عن نظم المجرات وعددها العظيم. وعلى العكس فإن تعدد الكواكب التي تشبه أرضنا ــ على الأقل في بعض الجوانب ــ هو مفهوم مستخلص من النص القرآني ، ولكن لم يثبت العلم وجوده حتى الآن. ومع ذلك فيرى المتخصصون أن هذا مفهوم معقول تماماً.

٥ ــ يمكن التقريب بين وجود الخلق الوسط بين « السماوات » و « الأرض » المعبر عنه في القرآن ، وبين اكتشاف جسور المادة التي توجد خارج النظم الفلكية المنظمة.

بناء على ذلك : فإذا كانت المسائل التي تطرحها رواية القرآن لم تتلق تماماً حتى يومنا توكيداً من المعطيات العلمية ، فإنه لايوجد على أي حال أقل

تعارضٍ بين المعطيات القرآنية الخاصة بالخلق وبين المعارف الحديثة عن تكوين الكون. ذلك أمر يستحق الالتفات إليه فيما يخص القرآن.

على حين قد ظهر بجلاء أن نص العهد القديم الذي نملك اليوم قد أعطى عن هذه الأحداث معلومات غير مقبولة من وجهة النظر العلمية. وكيف لاندهش لذلك خاصة إذا علمنا أن النص الأكثر تفصيلية عن رواية الخلق في التوراة [١] قد كتب بأقلام كهنة عصر النفي إلى بابل ، وقد كان لهؤلاء الكهنة الأهداف التشريعية (Leqalistes) التي حددناها أعلاه. فاصطنعوا لتلك الأهداف رواية تتفق ونظراتهم اللاهوتية.

إن وجود هذا الاختلاف بين رواية التوراة والمعطيات القرآنية عن الخلق جدير بالتنويه أمام الاتهامات ــ وكلها عفوية ــ التي لم توفر على محمد ﷺ منذ بدايات الإسلام. والتي تقول بأن محمداً ﷺ قد نقل روايات التوراة. فيما تعلق بموضوع الخلق. فإن الاتهام لايتمتع بأي أساس. كيف كان يمكن لإنسان ، منذ أربعة عشر قرناً تقريباً ، أن يصحح إلى هذا الحد الرواية الشائعة في ذلك العصر ، وذلك باستبعاد أخطاء علمية ، وبالتصريح بمبادرته وحده بمعطيات أثبت العلم أخيراً صحتها في عصرنا ؟! هذا فرض لايمكن الدفاع عنه. إن القرآن يعطي عن الخلق رواية تختلف تماماً عن رواية التوراة.

المبحث الثاني : علم الفلك في القرآن :

يحتوي القرآن على كثير من التأملات في السماوات. وقد رأينا ، في

---

(١) يحجب نص الكهنة هذه السطور القليلة من الرواية الأخرى المسماة باليهودية ، فهي من الإيجاز والغموض بما لايسمح لعقل علمي أن يأخذها في اعتباره.

الفصل السابق الخاص بالخلق ، الإشارة إلى تعدد السماوات والكواكب التي قد تشبه الأرض ، وكذلك وجود ما يعرفه القرآن بأنه خلق وسط « بين السماوات والأرض » ، وذلك ما دل العلم الحديث على وجوده. الآيات الخاصة بالخلق إذن قد أعطت بشكل ما فكرة عامة على محتوى السماوات ، أي كل ما هو خارج كوكبنا.

وبالإضافة إلى الآيات التي تصف الخلق بشكل خاص ، فهناك حوالي أربعين آية أخرى تأتي بإيضاحات تكميلية من هذه المعطيات عن علم الفلك. وليس بعض هذه الآيات إلا تأملات في عظمة الخالق ، الذي رتب كل نظم النجوم والكواكب ، تلك التي نعرف أنها موضوعة في مراكز توازن ، وقد شرح نيوتن الثبوت الدائم لهذا التوازن بقانونه عن جاذبية الأجرام.

وتكون هذه الإشارات حدثاً جديداً في التنزيل الإلهي. فلا الإنجيل ولا العهد القديم يعالجان ترتيب الكون (باستثناء المفاهيم التي رأينا بمجموع عدم صحتها في رواية التوراة عن الخلق). أما القرآن فهو ينظر طويلاً في هذا الموضوع. فما يحتويه هام ، ومالا يحتويه هام أيضاً. فهو لايحتوي في الواقع على ذكر النظريات السائدة في عصر تنزيله عن تنظيم العالم السماوي ، تلك النظريات التي أثبت العلم فيما بعد عدم صحتها. وسنعطي على ذلك مثالاً في الصفحات التالية. ولابد من التنويه بهذا الجانب ذي الطابع السلبي [1].

---

(١) كثيراً ما سمعت من هؤلاء الذين يحتالون في البحث من تفسير وضعي ـــ وتفسير وضعي . فقط لكل مشكلة يطرحها القرآن ، بأنه إذا كان يحتوي على

(أ) تأملات عامة في السماء :

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ (١).

﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ... ﴾ (٢).

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ... ﴾ (٣).

وتدحض الآيتان الأخيرتان الاعتقاد القائل بعدم إطباق السماء على الأرض لقيام الأولى على عمد.

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ... ﴾ (٤).

﴿ ... وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ... ﴾ (٥).

ومعروف أن ابتعاد الأجرام السماوية على مسافات عظيمة ومتناسبة طرديّاً مع الكتل نفسها يشكل أساس توازنها. فكلما تباعدت الأجرام وهنت

إيضاحات مدهشة في علم الفلك ، فذلك لأن العرب كانوا علماء في هذا الميدان ، ذلك يعني أنهم ينسون ببساطة أن تطور العلم عامة في البلاد الإسلامية قد جاء بعد نزول القرآن ، وأن المعارف العلمية ، على أي حال لم تكن لتسمح في ذلك العصر العظيم لكائن بشري بأن يكتب بعض آيات في علم الفلك التي نجدها في الكتاب. وسنقدم الدليل على ذلك في الفقرات التالية.

(١) سورة ق : ٥٠ / ٦.

(٢) سورة لقمان : ٣١ / ١٠.

(٣) سورة الرعد : ١٣ / ٢.

(٤) الرحمن : ٥٥ / ٧.

(٥) سورة الحج : ٢٢ / ٦٥.

قوة جذب كل منها للأخرى. وكلما تقاربت كان لكل منها تأثير على الأخرى ، تلك حالة القمر ، فهو لقربه من الأرض (ذلك بالطبع في سياق علم الفلك) ، يؤثر بقانون الجاذبية على موقع الماء في البحار ، ومن هنا تجيء ظاهرة المد والجزر. إن التقارب الشديد بين جرمين سماويين يؤدي لامحالة إلى اصطدامهما. إن الخضوع للتوازن هو الشرط الأساسي لعدم وجود اضطرابات.

ومن ثم فالقرآن كثيراً ما يذكر خضوع السماوات لأمر الله.

يقول الله للنبي ﷺ :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [١].

وقد رأينا كيف يجب أن نفهم أن السماوات السبع تعني السماوات متعددة وليس سماوات محدودة بعدد.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [٢].

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [٣].

﴿ ... وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ... ﴾ [٤].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [٥].

هنا تكمل الآية الأخرى : فنتيجة الحسابات المذكورة هي انتظام رحلة

---

(١) سورة المؤمنون : ٢٣ / ٨٦.

(٢) سورة الجاثية : ٤٥ / ١٣.

(٣) سورة الرحمن : ٥٥ / ٥.

(٤) سورة الأنعام : ٦ / ٩٦.

(٥) سورة إبراهيم : ١٤ / ٣٣.

الأجرام السماوية ، والقرآن يعبر عن هذا الانتظام بكلمة « دأب » وهي في النص على شكل اسم فاعل لفعل معناه الأول العمل بهمة وبلانقطاع. وقد أعطى هنا المعنى التالي : « الاجتهاد في عمل شيء ما بعناية ، وبشكل دائم لايتغير ، وبحسب عادة ثابتة » [١].

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [٢].

هذه إشارة إلى تقوس عرجون النخل الذي يتخذ شكل الهلال عندما يجف. وسنكمل التفسير فيما بعد.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [٣].

ويشير القرآن إلى النتيجة العملية للبنية السماوية مع التأكيد على أهميتها في تسهيل انتقالات الإنسان على الأرض وفي البحر وفي حساب الزمن. وتتضح هذه الملاحظة عندما نتذكر أن القرآن في الأصل كان رسالة موجهة إلى أناس لم يكن في مقدورهم أن يفهموا إلا اللغة السهلة ، لغتهم اليومية. وذلك هو سبب وجود تأملات كالتالية.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [٤].

---

(١) انظر : الكشاف للزمخشري ٢ : ٣٠٣.

(٢) سورة يس : ٣٦ / ٣٩.

(٣) سورة النحل : ١٦ / ١٢.

(٤) سورة الأنعام : ٦ / ٩٧.

﴿ ... وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [(١)].

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [(٢)].

وهنا تحق ملاحظة : على حين وصفت التوراة الشمس والقمر بمنيرين ، مضيفة صفة الكبر إلى الأولى والصغر إلى الثاني ، يخص القرآن كُلاً منهما بفروق غير تلك التي تتعلق بالحجم. ولاشك أن الفرق في القول فقط ولكن كيف كان يمكن مخاطبة الناس في ذلك العصر دون بلبلتهم مع التعبير في الوقت ذاته عن فكرة أن الشمس والقمر ليسا كوكبين منيرين من طبيعة واحدة ...؟

(ب) طبيعة الأجرام السماوية : الشمس والقمر

تسمى الشمس في القرآن بالضياء ، ويسمى القمر بالنور. وإذا شئنا الحقيقة ، ففرق المعنى بين الاثنين ضئيل حتى وإن كان أصل ضياء « ضوءاً » ويعني برق ولمع (يقال ذلك عن النار ... إلى آخره).

ولكن القرآن يحدد الفرق بين الشمس والقمر عبر مقارنات أخرى.

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [(٣)].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

---

(١) سورة النحل : ١٦ / ١٦.

(٢) سورة يونس : ١٠ / ٥.

(٣) سورة الفرقان : ٢٥ / ٦١.

وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [١].

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ [٢].

وواضح تماماً أن السراج الوهاج هو الشمس.

ويعرف القمر هنا باعتباره جرماً منيراً ، وأصل الكلمة « نور » (وهي صفة القمر). أما الشمس فيقارنها القرآن (بالسراج) أو بسراج وهّاج.

وبالتأكيد فإن الإنسان في عصر محمد ﷺ كان يستطيع التفريق بين الشمس الجرم السماوي الملهب الذي يعرفه جيداً سكان الصحراء ، وبين القمر وهو جرم طراوة الليالي. إذن فالمقارنات الخاصة بهذا الموضوع ، والتي نجدها في القرآن طبيعية تماماً. ومامّ الإشارة إليه هنا هو ذلك الإيجاز في المقارنات. بالإضافة إلى عدم احتواء نص القرآن على أي عنصر مقارن كان سائداً في ذلك العصر ، وأصبح اليوم وهماً.

المعروف أن الشمس نجم ينتج باحتراقه الداخلي حرارة شديدة وضوءاً ، على حين أن ليس القمر مضيئاً بذاته. بل هو يعكس الضوء الذي يستقبله من الشمس كما أنه كوكب خامل (ذلك على الأقل بالنسبة لقشرته الخارجية). لاشيء إذن في القرآن يناقض كل ما نعرف اليوم عن هذين الجرمين السماويين.

(ج) البنية السماوية :

ما نجد عن هذه المسألة في القرآن يخص النظام الشمسي بشكل رئيسي ، غير أن هناك أيضاً إشارات إلى ظاهرات تفوق النظام الشمسي نفسه ، ولقد

---

(١) سورة نوح : ٧١ / ١٥ - ١٦.

(٢) سورة النبأ : ٧٨ / ١٢ - ١٣.

اكتشفت هذه الظاهرات في العصر الحديث.

وهناك آيتان ، غاية في الأهمية ، تخصان مداري الشمس والقمر :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١).

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٢).

القرآن يذكر بوضوح أمراً جوهرياً. ألا وهو وجود مدار لكل من الشمس والقمر ، كما يشير إلى تنقل هذين الجرمين في الفضاء كل بحركة خاصة.

وبالإضافة إلى ذلك فقراءة هاتين الآيتين تظهر بالسلب أمراً آخر وهو الإشارة إلى تنقل الشمس على مدار دون تفصيل عن هذا المدار بالنسبة إلى الأرض ، فهذا المدار ظاهري فقط بالنسبة للملاحظ. وقد كان يعتقد في عصر تنزيل القرآن أن الشمس تنتقل مع الأرض كنقطة ثابتة. كان ذلك هو نظام المركزية الأرضية السائد منذ بطليموس (Ptolemee) ، أي منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، والذي ظل يحظى بالتأكيد حتى قوبرنيق (Copernic) ، في القرن السادس عشر. هذا المفهوم ، برغم التشيع له في عصر محمد ﷺ لايظهر في أي موضع من القرآن ، لا في الآيات الكونية ولا في مواضع أخرى.

وجود مدارين للقمر والشمس :

ما يفسر هنا بمدار هو فلك في نص القرآن ، وهي كلمة عربية قديمة.

---

(١) الأنبياء : ٢١ / ٣٣.

(٢) سورة يس : ٣٦ / ٤٠.

وكثير من المترجمين ومن المعلقين يعطون لكلمة فلك معنى كرة ويترجمها حميد الله بمدار.

ولقد حيرت الكلمة قدامى مفسري القرآن ، إذ لم يكن بمقدورهم أن يتخيلوا الرحلة الدائرية للقمر والشمس في الفضاء ، وعليه فقد تمثلوا عن مسيرتي هذين الجرمين صوراً مغلوطة تماماً ، أو على درجات مختلفة من الصحة. ويذكر حمزة أبوبكر في ترجمة للقرآن بتنوع التفسيرات المعطاة لكلمة الفلك منها : « هو كهيئة حديد الرحى ، كرة سماوية ، مدار ، بروج ، جري ، سرعة ، موج مكفوف ... » ولكنه يضيف هذه الكلمة الحكيمة التي قالها الطبري مفسر القرن العاشر الشهير : « ... ونسكت عما لاعلم لنا فيه » [1]. ذلك يوضح لنا إلى أي حد كان الناس عاجزين عن تمثل فكرة المدار الشمسي والمدار القمري.

ويتضح من هذا أنه إذا كانت كلمة فلك تعني مفهوماً سائداً في عصر محمد ﷺ ، لما لقي تفسير هذه الآيات مثل هذه المصاعب ، وعليه فقد قدم القرآن في ذلك العصر مفهوماً جديداً لم يتضح إلا بعد قرون عدة.

الإشارة إلى تنقل القمر والشمس في الفضاء بحركة خاصة :

لاوجود لهذا المفهوم في ترجمات وتفسيرات القرآن التي قام بها أدباء ، ولجهلهم بعلم الفلك فإنهم قد فسروا من الكلمة العربية التي تعبر عن هذه الحركة معنى واحداً من معانيها وهو « عام ـ يعوم » : نجد ذلك في التفسيرات الفرنسية والتفسير الإنجليزي سواء ، وهذا الأخير الذي قام به يوسف علي في

(١) تفسير الطبري ١٧ : ١٥ و ١٦.

ترجمته الإنجليزية يستحق التقدير.

إن الكلمة العربية التي تشير إلى تنقل بحركة خاصة هي (سبح) (وفي الآيتين : « يَسْبَحُونَ »). إن كل معاني الكلمة تتضمن التنقل بحركة يتميز بها الجرم الذي يتنقل. ويكون المعنى سبح إذا كان هذا التنقل في الماء ، ويكون كذلك أيضا إذا كان التنقل على الأرض بالأقدام. وفيما يتعلق بالحركة في الفضاء فمن العسير التعبير عن هذه الفكرة المتضمنة في الكلمة إلا بأستخدام معناها الأولي. بهذا الشكل لايبدو أنه قد وقع خطأ باستخدام معنى أصلي وذلك للأسباب التالية :

ـ يؤدي القمر دورته حول نفسه في نفس الوقت الذي يتم فيه دورته حول الأرض ، أي فيما يقارب ٢٩ يوماً ونصف يوم ، وبحيث إن وجهه هو دائماً نفس الوجه أمام ناظرينا.

ـ تدور الشمس حول نفسها في ٢٥ يوماً تقريباً ، وهناك بعض صفات خاصة في الدورة بالنسبة لخط الاستواء والقطبين ، ولن نصر على هذه الخواص ، ولكنها مدفوعة بحركة دورية في المجمل العام.

ويظهر إذن أن هناك فرقاً كلامياً دقيقاً يشير فيه القرآن إلى الحركات الخاصة لكل من الشمس والقمر. ولقد أكد العلم الحديث حركات هذين الجرمين السماويين ، ولايمكن تصور أن رجلاً في القرن السابع من عصرنا قد استطاع تخيل هذا مهما يكن عالماً في عصره ، وليس ذلك حال محمد ﷺ .

ويدفع أحياناً ضد هذه الرؤية بحالات لمفكرين كبار من العصر القديم كانوا قد صرحوا دون أي جدال ببعض الأمور التي اعترف العلم الحديث

بصحتها. ومع ذلك فلم يكن باستطاعة هؤلاء المفكرين الاعتماد على الاستنتاج العلمي ، بل كانوا يعتمدون أكثر ما يعتمدون على التعقل الفلسفي. يدفع كثيراً على سبيل المثال بحالة الفيثاغورثيين الذين كانوا يدافعون في القرن السادس قبل الميلاد عن نظرية دوران الأرض حول نفسها وجري الكواكب حول الشمس ، وهي النظرية التي أكد صحتها العلم الحديث. فإذا قمنا بالتقريب بين حالة الفيثاغورثيين والحالة التي تعنينا ، يصبح من اليسير الدفع بالفرض القائل بأن محمداً ﷺ كان مفكراً عبقرياً ، وقد تخيل وحده ما اكتشفه العلم الحديث بعده بقرون. وببساطة فهؤلاء النقاد بتفكيرهم هذا ، ينسون ذكر الجوانب الأخرى للإنتاج العقلي عند عباقرة التفكير الفلسفي ، كما ينسون ذكر الأخطاء الجسيمة التي تشين مؤلفاتهم.

على سبيل المثال يجب ألا ننسى أن الفيثاغورثيين كانوا يدافعون أيضاً عن نظريات ثبات الشمس في الفضاء ، وأنهم جعلوها مركز العالم غير متصورين وجود بنية سماوية إلا حول الشمس. الواقع أن وجود خليط من الأفكار الصحيحة والخاطئة عن الكون أمر جار عند كبار الفلاسفة القدامى ، ويجب ألا يبهرنا بريق المفاهيم المتقدمة في هذه المؤلفات الإنسانية ، وينسينا المفاهيم المغلوطة التي خلقتها أيضاً. ذلك ما يفصلها ــ من وجهة النظر العلمية والعلمية فقط ــ عن القرآن الذي نجد فيه ذكر عديد من الموضوعات المتعلقة بالمعارف الحديثة دون أن تكون به أي دعوى مناقضة لما أثبته العلم في عصرنا.

تعاقب النهار والليل :

من الإنسان من لم يكن ليتحدث عن حركة الشمس فيما يتعلق بتعاقب

النهـــار والليـــل ، في عصـــر كـــانوا يعتـــبرون فيـــه الأرض مركـــز العـــالم ، وأن الشـــمس متحركـــة بالنســـبة إلى الأرض ، وبـــرغم ذلـــك فهـــذا الأمـــر لايظهـــر في القـــرآن الـــذي يعالج الموضوع كما يلي :

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ... ﴾ (١).

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾ (٢).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ (٣).

﴿ ... يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ (٤).

لاتحتـــاج الآيـــة الأولى إلى تعليـــق ، والآيـــة الثانيـــة تريـــد فقـــط أن تعطـــي صـــورة ، أمـــا الآيتـــان الثالثـــة والرابعـــة فـــيمكن ، بشـــكل رئيســـي ، أن يمـــثلا أهميـــة بالنســـبة إلى عمليـــة تـــداخل ، وبالـــذات تكـــور الليـــل علـــى النهـــار والنهـــار علـــى الليل (٥).

كـــوّر يعـــني لـــف ، كمـــا يقـــول ر.بلاشـــير (R.Blachere) في ترجمتـــه القـــرآن. والمعـــنى الأولي لهـــذا الفعـــل هـــو كـــوّر علـــى الـــرأس عمامـــة علـــى هيئـــة حلزونيـــة. وتحتفظ كل المعاني الأخرى للكلمة بمفهوم التكور.

وعليـــه ، فمـــاذا يحـــدث إذن في الفضـــاء ...؟ إن الشـــمس تضـــيء بشـــكل دائـــم (فيمـــا عـــدا فـــترات الخســـوف) نصـــف الكـــرة الأرضـــية الـــتي تقـــع أمامهـــا ، علـــى حـــين

---

(١) سورة الأعراف : ٧ / ٥٤.

(٢) سورة يس : ٣٦ / ٣٧.

(٣) سورة لقمان : ٣١ / ٢٩.

(٤ و ٥) سورة الزمر : ٣٩ / ٥.

يظل النصف الآخر مظلماً. وقد رأى رواد الفضاء الأمريكيون هذا وصوروه من مركباتهم الفضائية وخاصة على بعد بعيد عن الأرض ... من على القمر مثلاً. وبدوران الأرض حول نفسها على حين تظل الإضاءة ثابتة ، فإن المنطقة المضاءة منها ـ وهي على شكل نصف كروي ـ تؤدي في أربع وعشرين ساعة دورتها حول الأرض ، على حين يتم النصف الآخر المظلم في نفس الوقت نصف الرحلة. والقرآن يصف بشكل كامل هذه الدورة التي لاتكف أبدا للنهار والليل ، وهي اليوم يسيرة على الإدراك الإنساني ، فنحن نملك اليوم خبرة فكرية عن ثبوت الشمس [١] وعن دورة الأرض. هذه العملية الدائمة في التكور مع الولوج المستمر لقطاع في آخر يعبر القرآن عنها ، وكأن اكتشاف استدارة الأرض كان قد تم في عصر تنزيل القرآن ، وبالطبع لم يكن هذا قد حدث بعد.

ويجب أن نربط بهذه الاعتبارات الخاصة بتعاقب النهار والليل إشارات بعض الآيات القرآنية عن تعدد المشارق والمغارب ، وأهمية هذه الإشارات وصفية فقط وملاحظتها أمر شائع ، ولايشار إليها هنا إلا بهدف النقل الكامل ما أمكن من كمال لما يحتويه القرآن عن هذا الموضوع ، وعلى سبيل المثال فمن هذه الآيات ما يلي :

﴿ ... بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ... ﴾ [٢].

---

(١) فهو ثبوت نسبي.

(٢) سورة المعارج : ٧٠ / ٤٠.

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [(١)].

﴿ ... بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ... ﴾ [(٢)] وهي صورة تعبر عن اتساع المسافة بين نقطتين.

إن الملاحظ لشروقات الشمس وغروباتها يعرف جيداً أن الشمس تشرق من نقاط مختلفة في الشرق وتغرب على نقاط مختلفة في الغرب ، وذلك حسب الفصول. إن العلامات التي تتخذ على كل من الأفقين تحدد نقاطاً قصوى تشير إلى مشرقين ومغربين ، توجد بينهما نقاط وسيطة على مدار السنة. ولاشيء غير عادي في هذه الظاهرة. ولكن ما ينبغي للنظر أن يلتفت إليه هو ما يرجع على موضوعات أخرى محل للبحث في هذا الفصل ، ونجد فيها وصف الظاهرات الفلكية المذكورة في القرآن ، وهذا الوصف يبدو متطابقاً مع المفاهيم الحديثة.

(د) تطور العالم السماوي :

بتذكيرنا للأفكار الحديثة عن تشكل الكون عرضنا للتطور الذي حدث من القديم الأولي إلى تشكل المجرات والنجوم فيما يخص النظام الشمسي إلى ظهور الكواكب انطلاقاً من الشمس في مرحلة ما من تطورها. وتسمح المعطيات الحديثة بالتفكير في وجود تطور مستمر حتى الآن للنظام الشمسي ، وللكون بشكل عام.

كيف لانقوم بالتقريب ، عندما نكون عارفين بهذه المفاهيم ، بين بعض المقولات التي نجدها في القرآن عندما نذكر شواهد القدرة الإلهية ...؟

---

(١) سورة الرحمن : ٥٥ / ١٧.

(٢) سورة الزخرف : ٤٣ / ٣٨.

القرآن يذكر على مرات متعددة أن الله ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ ، هذه الجملة نجدها في آيات متعددة في القرآن [١].

أكثر من ذلك ففكرة الأجل المسمى مشتركة بفكرة مكان للوصول إليه محدد ، نجد هذا في : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [٢].

والمكان المحدد هو تفسير الكلمة « مستقر ». وليس هناك أدنى شك في أن فكرة المكان المحدد مرتبطة بهذه الكلمة.

كيف تبدو المقابلة بين هذه الدعاوى والمعطيات التي أقرها العلم الحديث ...؟ يعطي القرآن حداً لتطور الشمس ومكاناً لوصولها ، وهو حدد أيضاً نهاية شوط القمر. ولكي تفهم المعنى الممكن لهذه المقولات ، يجب التذكير بالمعارف الحديثة عن تطور النجوم عامة والشمس خاصة ، وبالتالي عن المشكلات السماوية التي تتبع بالضرورة حركة الشمس في القضاء والتي يعد القمر جزءاً منها.

الشمس نجم يقدر علماء الفلك عمره بحوالي ٤.٥ مليار سنة. وكما هو الحال بالنسبة لكل النجوم فيمكن تحديد مرحلة تطوره. الشمس حالياً في مرحلة أولى تتسم بتحول ذرات الهيدروجين إلى ذرات الهليوم : نظرياً يمكن أن تدوم هذه المرحلة ٥.٥ مليار سنة على حسب الحسابات التي أنجزت ،

---

(١) سورة الرعد : ١٣ / ٢ ، سورة لقمان : ٣١ / ٢٩ ، سورة فاطر : ٣٥ / ١٣ ، سورة الزمر : ٣٩ / ٥.

(٢) سورة يس : ٣٦ / ٣٨.

والـتي تقـدر لهـذه المرحلـة الأولى لـنجم مـن نمـط الشـمس ديمومـة زمنيـة قـدرها ١٠ مليـارات سـنة. تلـي هـذه المرحلـة ـ كمـا لـوحظ ذلـك بالنسـبة إلى نجـوم أخـرى ، مـن نفـس الـنمط ـ فـترة ثانيـة تتميـز بتمـام تحـول الهيـدروجين إلى هليـوم ، وتكـون نتيجـة هـذا التحـول تمـدد الطبقـات الخارجيـة وبـرود الشـمس النهائيـة تتنـاقص ضـوئية الشـمس بشـدة وترتفـع كثافتهـا بشـدة أيضـاً : ذلـك مـا يلاحـظ في أنمـاط النجوم المسماة بالأقزام البيضاء.

مـا يجـب الالتفـات إليـه في كـل هـذا ، لـيس التـواريخ ، فهـي لاتهـم إلا مـن حيـث إنهـا تعطـي تقـديراً تقريبيـاً لعامـل الـزمن ، فمـا يتضـح أساسـاً هـو فكـرة التطـور. إن المعطيـات الحديثـة تسـمح بـالتنبؤ بأنـه بعـد عـدة مليـارات مـن السـنوات لـن تكـون ظـروف النظـام الشمسـي مـا هـي عليـه اليـوم. وكمـا حـدث بالنسـبة لنجـوم أخـرى سجلت تحولاتها حتى المرحلة الأخيرة فيمكن توقع نهاية للشمس.

تحـدثت الآيـة الثانيـة المـذكورة [1] هنـا عـن الشـمس جاريـة نحـو مكـان خاص بها « لمستقرها ».

ويحـدد علـم الفلـك الحـديث بشـكل كامـل هـذا المكـان ، بـل لقـد أعطـاه اسـم (مسـتقر الشـمس) (Apex Solaire). الواقـع أن النظـام الشمسـي يتحـرك في الفضـاء نحـو نقطـة في فلـك (Constellation) هرقـل مجـاورة لنجمـة فيجـا (Vega a Lyrae) الـتي تحـددت تمامـاً إحـداثيتها ، ولقـد أمكـن تحديـد سـرعة هذه الحركة تقريباً ١٩ كم / ثانية.

لقـد كـان مـن الواجـب ذكـر معطيـات علـم الفلـك هـذه بمناسـبة تفسـير آيـتي

---

(١) سورة يس : ٣٦ / ٣٨.

القرآن اللتين نستطيع أن نقول إنهما تتطابقان تماماً فيما يتضح مع المعطيات العلمية الحديثة.

توسع الكون :

توسع الكون هو أعظم ظاهرة اكتشفها العلم الحديث. ذلك مفهوم قد ثبت تماماً ، ولا تعالج المناقشات إلا النموذج الذي يتم به هذا التوسع.

وإذا كانت النسبية العامة هي التي أوحت به ، فإن توسع الكون مفهوم يعتمد على معطيات مادية ، وذلك من خلال دراسات طيف المجرات ، فالانتقال المنهجي نحو اللون الأحمر من الطيف يجد تعليلاً له في تنحي المجرات كل عن الأخرى. وعلى ذلك فامتداد الكون لايكف عن الكبر. وهذا الاتساع على أهمية أكثر خاصة وإن المجرات تبتعد عنا. إن السرعات التي تنتقل بها الأجرام السماوية قد تتراوح من أجزاء من سرعة الضوء إلى مقادير سرعته.

ترى أيمكن أن نقابل الآية التالية ، التي يتحدث فيها الله ، بهذه المفاهيم الحديثة ...؟ ﴿ **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ** ﴾ [1]. ألا تعني السماء بالتحديد الكون خارج الأرض ؟ « وَمُوسِعُونَ » اسم فاعل لفعل « أوسع » ويعني عرض وجعل الشيء شاسعاً وأكثر رحابة.

وبعض المفسرين ممن لم يقدروا على إدراك معنى الكلمة الأخيرة أعطوها دلالات تبدو لي مَغْلُوطَة كقول ر.بلاشير « كنا رحابة ». وبعض كتاب آخرين يحدسون المعنى دون أن يجرؤوا على التصريح به : فحميد الله يتحدث

---

(١) سورة الذاريات : ٥١ / ٤٧.

في ترجمته للقرآن عن اتساع السماء والفضاء ، ولكن مع علامة استفهام. من المفسرين ممن يحتاطون لتفسيراتهم برأي العلماء ويعطون التفسير الذي قدمنا. وذلك حال من وضعوا تفسير المنتخب الذي طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة. إنهم يتحدثون دون أدنى غموض عن توسع الكون.

المبحث الثالث : أصل الحياة وتناسل الانسان

(أ) أصل الحياة

شغلت هذه المسألة في كل العصور الإنسان ، سواء ما كان يخصه منها أو ما يخص الكائنات الحية المحيطة به.

وعندما يواجه القرآن أصل الحياة على مستوى عام تماماً ، فإنه يذكر ذلك بإيجاز بالغ في آية تخص أيضاً عملية تشكل الكون التي ذكرناها وعلقنا عليها سابقاً.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [(١)]

ليس هناك شك في مفهوم المصدر. فالعبارة يمكن أن تعني أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهرية ، أو أن أصل كل شيء حي هو الماء. ويتفق هذان المعنيان تماماً مع [المعطيات] العلمية : فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء ؛ وإذا ما نوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما ، فإن أول سؤال يطرح هو :

---

(١) سورة الأنبياء : ٢١ / ٣٠.

أيحتوي هذا الكوكب على كمية [من الماء] كافية للحياة عليه ...؟

وتسمح المعطيات الحديثة بالاعتقاد بأن أقدم الكائنات الحية كانت تنتمي إلى عالم النبات ، فقد اكتشفت طحالب ترجع إلى ما قبل العصر الكمبري (Prcambnen) أي في أقدم الأراضي المعروفة ، ولابد أن عناصر عالم الحيوان قد ظهرت بعد ذلك بقليل ، وقد أتت أيضاً من المحيطات.

وتشير كلمة ماء إلى ماء السماء ، كما تعني ماء المحيطات ، أو أي سائل آخر ، وبالمعنى الأول فالماء هو العنصر اللازم لأي حياة نباتية.

﴿ ... وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [1].

وتلك أول عبارة عن « الزوجية » في النباتات وسنعود فيما بعد إلى هذا المفهوم. إن الكلمة بمعناها الثاني ، أي ذلك الذي يعني « سائل » دون أي تحديد ، مستخدمة في شكلها غير المحدد للدلالة على ما هو أصل تشكل أي حيوان.

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ [2].

وسنرى فيما بعد أن الكلمة تنطبق أيضاً على السائل المنوي [3].

وإذن فسواء كان المقصود هو أصل الحياة عموماً ، أو العنصر الذي يجعل النباتات تولد في التربة ، أو كان المقصود هو بذرة الحيوان ، فإن كل عبارات القرآن تتفق تماماً مع المعطيات العلمية الحديثة ، ولامكان مطلقاً في نص

---

(١) سورة طه : ٢٠ / ٥٣.

(٢) سورة النور : ٢٤ / ٤٥.

(٣) سائل مفروز بواسطة الغدد الخاصة بالتناسل ، وهو يحتوي على الحيوانات المنوية.

القرآن لأي خرافة من الخرافات التي كانت منتشرة في عصر تنزيل القرآن.

(ب) التناسل الإنساني في القرآن :

إن تكوين فكرة عن محتوى القرآن في هذا الموضوع ليس أمراً يسيراً. وتكمن الصعوبة الأولى في أن المقولات الخاصة بالتناسل الإنساني متفرقة في كل الكتابات مثلما أشرنا ، ولكن ليست هذه هي الصعوبة الكبرى ، فأكثر ما قد يضل الباحث ، هنا أيضاً ، هو مشكلة المفردات.

فالواقع أن ترجمات وتفسيرات بعض الفقرات التي مازالت منتشرة في عصرنا تعطي لرجال العلم الذين يقرءونها فكرة مغلوطة تماماً عن الآيات الخاصة بهذا الموضوع ، على سبيل المثال تقول معظم هذه التفسيرات بتشكل الإنسان ابتداء من « جلطة دم » أو ابتداء من « التحام ». وهذه المقولة لايقبلها مطلقاً العالم المتخصص في هذا الميدان ، فلم يكن أصل الإنسان أبداً شيئاً من هذا ، وسنرى في الفقرة التي تعالج تعشيش البويضة في رحم الأم الأسباب التي من أجلها يقع مستعربون بارزون في مثل تلك الأخطاء ، لافتقارهم إلى الثقافة العلمية.

مثل هذه الملاحظة تجعلنا نتصور الأهمية الكبرى لاقتران المعارف اللغوية والمعارف العلمية للوصول إلى إدراك معنى المقولات القرآنية عن التناسل.

يركز القرآن أولاً على التحولات المتوالية التي يمر بها الجنين في رحم الأم حتى نهاية الحمل.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ

* ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [١].

﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [٢].

وإلى جانب هذه الملاحظة العامة يلفت نص القرآن الانتباه نحو نقاط عدة خاصة بالتناسل البشري ، ويمكن تصنيفها كما يلي :

١ . يتم الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً.

٢ . طبيعة السائل المخصب.

٣ . تعشش البيضة المخصبة.

٤ . تطور الجنين.

١ . تمام الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً :

يكرر القرآن هذه المعلومة ١١ مرة مستخدماً التعبير الذي نجده في :

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ ... ﴾ [٣].

نطفة : تأتي الكلمة من فعل يعني سال ، ونض ، وتستخدم في الإشارة إلى ما يمكن أن يتبقى في دلو بعد تفريغه. وهي إذن تشير إلى كمية من سائل ضئيلة جداً ، ومن هنا كان المعنى الثاني « قطرة ماء ». المقصود هنا قطرة من مَنِيّ. ذلك أن نفس هذه الكلمة تقترن بكلمة منيّ في آية أخرى هي : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴾ [٤].

---

(١) سورة الانفطار : ٨٢ / ٦ . ٨.

(٢) سورة نوح : ٧١ / ١٤.

(٣) سورة النحل : ١٦ / ٤.

(٤) سورة القيامة : ٧٥ / ٣٧.

وهناك آية أخرى تشير إلى أن النطفة المقصودة توضع في « قرار ». وهذا القرار كما هو واضح تماماً يدل على الجهاز التناسلي : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [(١)].

وتعبر صفة « مكين » التي يصف بها النص القرار عن فكرة مكان متقرر. وعلى أي حال فالمقصود هو المكان الذي ينمو فيه الإنسان في جهاز الأم. ولكن مايهم التأكيد عليه بوجه خاص هو تلك المعلومة عن الكمية الضئيلة جداً اللازمة للإخصاب ، وهي تتفق تماماً مع ما نعرف اليوم.

٢ . طبيعة السائل المخصب :

يذكر القرآن هذا السائل الذي يضمن الإخصاب بصفات تستحق الدراسة :

(أ) ﴿ مَّنِيٍّ ﴾ كما حددنا لتونا [(٢)].

(ب) « مَّاءٍ دَافِقٍ » : ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ [(٣)].

(ج) ﴿ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ [(٤)].

يمكن تفسير صفة مهين ، فيما يبدو ، ليس على أنها للسائل نفسه ، وإنما بسبب خروجه من نهاية الجهاز البولي ، فهو إذن يتخذ الطريق الذي يخرج منه البول.

---

(١) سورة المؤمنون : ٢٣ / ١٣.

(٢) سورة القيامة : ٧٥ / ٣٧.

(٣) سورة الطارق : ٨٦ / ٦.

(٤) سورة المرسلات : ٧٧ / ٢٠ ، سورة السجدة : ٣٢ / ٨.

(د) ﴿ أَمْشَاجٍ ﴾ أي المخاليط أو ما هو مخلوط : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ... ﴾ (١).

ويرى كثير من المفسرين أن المقصود بهذا المخلوط هو عنصر الذكر ، وعنصر الأنثى. وكذلك الأمر بالنسبة للكتاب القدماء ، إذ لم تكن لديهم أدنى فكرة عن فسيولوجيا الإخصاب ولا عن ظروف الإخصاب البيولوجية من ناحية الأنثى ، وكانوا يعتبرون أن الكلمة تشير لمجرد اجتماع عنصرين.

أما المفسرون المحدثون ، مثل صاحب المنتخب الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الاسلامية بالقاهرة ، فإنهم يعدلون عن هذه الطريقة ، ويميزون هنا أن نقطة المنيّ « ذات عناصر شتى ». ولايعطي تفسير المنتخب تفصيلات أخرى عن ذلك ، ولكن ملاحظته ، في رأيي ، سديدة تماماً.

ما هي إذن عناصر المنِيّ المختلفة ...؟

يتشكل السائل المنوي من إفرازات مختلفة تأتي من الغدد التالية :

(أ) الخصيتان (يحتوي إفراز الغدة التناسلية للذكر على الحيوانات المنوية ، وهي خلايا مستطيلة مزودة بهدب طويل ، وتسبح في سائل مصلي).

(ب) الحويصلات المنوية : تخزن هذه الأعضاء الحيوانات المنوية ، وتقع على مقربة من البروستاتا ، وتفرز إفرازا خاصا لكنه لايحتوي على عناصر مخصبة.

(ج) البروستاتا : وتفرز سائلاً يعطي للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحته الخاصة.

---

(١) سورة الإنسان : ٧٦ / ٢.

(د) الغـــدد الملحقـــة بالمســـالك البوليـــة : وهـــي الغـــدد المعروفـــة باســـم كـــوبر (Cooper) أو مـــيري (Mery) وتفـــرز ســـائلاً جاريـــاً ، وغـــدد ليـــتري (Littre) وتفـــرز المخـــاط. تلـــك هـــي أصـــول هـــذه المخـــاليط « الأمشـــاج » الـــتي يبـــدو فعـــلاً أن القرآن يتحدث عنها.

بـــل هنـــاك أكثـــر مـــن هـــذا ، إذا كـــان القـــرآن يتحـــدث عـــن ســـائل مخصـــب يتكـــون مـــن عناصـــر مختلفـــة ، فإنـــه يلفـــت نظرنـــا إلى أن نســـل الإنســـان يســـتمر بواســـطة شـــيء يمكـــن اســـتخراجه مـــن هـــذا الســـائل. وذلـــك هـــو معـــنى الآيـــة : ﴿ **ثُـمَّ جَعَـلَ نَسْـلَهُ مِـن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ** ... ﴾ [1].

ســـلالة : تـــدل الكلمـــة علـــى شـــيء مســـتخرج أو خـــرج مـــن شـــيء آخـــر ، أو هـــو أحسن جزء من شيء. وأيّا كانت طريقة التفسير فالمقصود هو جزء من كل.

إن مـــا يتســـبب في إخصـــاب البويضـــة ، ويكفـــل التناســـل هـــو خليـــة شـــديدة الاســـتطالة يقـــاس طولهـــا بمقيـــاس ١ : ١٠٠٠٠ ملـــم. إن عنصـــراً واحـــداً مـــن بـــين عشـــرات الملايـــين الصـــادرة مـــن رجـــل في ظـــروف عاديـــة [2]. يصـــل إلى الولـــوج في البويضـــة. ويتبقـــى عـــدد كبـــير في الطريـــق ولايـــنجح في قطـــع المســـافة الـــتي تـــؤدي مـــن المهبـــل إلى البويضـــة عـــبر تجويـــف الـــرحم والبـــوق (بـــوق فـــالوب). إنـــه إذن متنـــاهٍ في الصغر صادر من السائل معقد التركيب هو الذي يحقق نشاطه.

فكيـــف لانـــدهش أمـــام الاتفـــاق بـــين العنصـــر القـــرآني والمعرفـــة العلميـــة الـــتي

---

(١) سورة السجدة : ٣٢ / ٨.

(٢) يمكـــن تقـــدير أن ١ ســـم ٣ مـــن الســـائل المنـــوي يحتـــوي علـــى ٢٥ مليـــون حيـــوان منـــوي في الظروف العادية لعملية قذف قدرها عدة سنتيمترات مكعبة.

اكتسبناها من هذه الظاهرات.

٣ . تعشش البويضة في جهاز الأنثى التناسلي

تنزل البويضة لتعشش في التجويف الرحمي بعد أن تخصب ، وذلك مايسمى بتعشش البويضة. ويسمى القرآن الرحم الذي تتخذ فيه البويضة مكاناً. ﴿ ... **وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ... ﴾ [1].

ويتحقق استقرار البويضة بالرحم بواسطة امتدادات حقيقية ، وكما لو كانت بذوراً تضرب في الأرض ، فإنها تنهل من جدار العضو ما يلزم لنمو الجنين. وهذه الامتدادات هي التي تجعل البويضة تتعلق بالرحم. ويرجع تاريخ معرفتها إلى العصور الحديثة.

ويشير القرآن خمس مرات إلى هذا التعلق : أولاً في الآيتين :

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾ [2].

علق : تشير الكلمة إلى ما يعلق (ما يتشبث بشيء). ذلك هو المعنى الأول. وجلطة الدم معنى مشتق من هذا المعنى ، وكثيراً ما نراه في التفاسير ، غير أن هذا أمر غير صحيح ينبغي التحذير منه : فالإنسان لايمر مطلقاً بمرحلة جلطة الدم. وينطبق نفس الأمر على تفسير آخر وهو « التصاق ». تلك لفظة غير صحيحة. والمعنى الأول للكلمة ، أي شيء يعلق ويتشبث ، هو المعنى الذي يستجيب تماماً للواقع الثابت اليوم.

ويذكر القرآن تلك المعلومة في أربع آيات أخرى تتحدث عن التحولات

---

(١) سورة الحج : ٢٢ / ٥.

(٢) سورة العلق : ٩٦ / ١ . ٢.

المتوالية ابتداء من قطرة المنيّ حتى نهاية الحمل.

﴿ ... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ... ﴾ [١].

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ... ﴾ [٢].

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ... ﴾ [٣].

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [٤].

يصف القرآن العضو الذي يقع الحمل به بكلمة في العربية تدل اليوم على الرحم كما رأينا ذلك. وفي بعض الآيات يسميه قراراً [٥].

٤ . تطور الجنين في الرحم

تطور الجنين في الرحم كما يصفه القرآن يستجيب تماماً لما نعرف اليوم عن بعض مراحل تطور الجنين ، ولا يحتوى هذا الوصف على أي مقولة يستطيع العلم الحديث أن ينقذها.

إذ يقول القرآن إن الجنين ، بعد مرحلة التشبث ، وهو التعبير الذي رأينا إلى أي حد هو مؤسس على الحقيقة ، يمر بمرحلة « المضغة » (أي اللحم الممضوغ) ثم يظهر بعد ذلك النسيج العظمي الذي يغلف باللحم ، ويعني لحماً نضراً.

﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

---

(١) سورة الحج : ٢٢ / ٥.

(٢) سورة المؤمنون : ٢٣ / ١٤.

(٣) سورة غافر : ٤٠ / ٦٧.

(٤) سورة القيامة : ٧٥ / ٣٧ و ٣٨.

(٥) سورة المؤمنون : ٢٣ / ١٣ ، سورة المرسلات : ٧٧ / ٢١.

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ... ﴾[(١)].

المُضْغَة : تشير إلى ما يشبه اللحم الممضوغ ، أما اللحم فيعني اللحم النضر. ويستحق هذا التمييز الالتفات. إذ إن الجنين في مرحلة أولى من تطوره كتلة صغيرة تبدو فعلاً للعين المجردة كلحم ممضوغ ، ويتطور الهيكل العظمي في هذه الكتلة ، وبعد أن تشكل العظام ، تتغطى بالعضلات ، وعلى العضلات توافق كلمة لحم.

والمعروف أن بعض الأجزاء ، في أثناء مدة تطور الجنين ، تبدو غير متناسبة مع ماسيكون عليه الفرد في المستقبل على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة.

ذلك هو معنى كلمة « مخلق » ؛ هي تعني مشكل بنسب ، وقد جاءت الآية لتشير إلى هذه الظاهرة :

﴿ **... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم ... ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ** ﴾[(٢)].

ويذكر القرآن أيضاً ظهور الحواس والأحشاء : ﴿ **... وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ...** ﴾[(٣)].

ويشير أيضاً إلى تشكل الجنس : ﴿ **وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ**

---

(١) سورة المؤمنون : ٢٣ / ١٤.

(٢) سورة الحج : ٢٢ / ٥.

(٣) سورة السجدة : ٣٢ / ٩.

وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ (١).

وتذكر آيات أخرى تشكل الجنس أيضاً (٢).

وكما قلنا فلا بد من مقارنة كل هذه المقولات القرآنية بالمعلومات التي تثبت في العصر الحديث ، إن توافق المقولات القرآنية مع المعلومات الحديثة يتضح ، ولكن من المهم أيضاً مقابلتها بالمعتقدات العامة في هذا الموضوع ، والتي كانت سائدة في عصر تنزيل القرآن حتى ندرك إلى أي حد كان معاصرو هذه الفترة بعيدين عن حيازة معلومات تشبه تلك التي يعرضها القرآن في هذه المسائل. وليس هناك أدنى شك في أن هؤلاء المعاصرين لم يعرفوا في ذلك العصر تفسير هذا الوحي مثلما ندركه نحن اليوم ، ذلك أن معطيات المعرفة الحديثة تعيننا على تفسيره. الواقع أن المتخصصين لم يكتسبوا معرفة واضحة إلى حد ما عن هذه المسائل إلا خلال القرن التاسع عشر.

فطيلة كل القرون الوسطى كانت الخرافات والأفكار النظرية التي لاتتمتع بأي أساس هي قاعدة مختلف المعتقدات في هذا الموضوع ، بل لقد سادت أيضاً لقرون عديدة حتى بعد العصور الوسطى. إن المرحلة الحاسمة في تاريخ علم الأجنة بدأت بدعوى هارفي (Harvey) الذي قال في عام ١٦٥١ ، بأن كل شيء حي يأتي أولاً من بويضة ، وأن الجنين يتخلق تدريجياً جزءاً بعد جزء. في هذا العصر كان العلم الوليد قد أفيد كثيراً ، في الموضوع المعني هنا ، باختراع المجهر الذي كان قد تم في عصر سابق بقليل ، وبرغم ذلك فقد كان النقاش

---

(١) سورة النجم : ٥٣ / ٤٥ . ٤٦.

(٢) سورة فاطر : ٣٥ / ١١ ، سورة القيامة : ٧٥ / ٣٩.

دائـــراً حـــول دوري كـــل مـــن البويضـــة والحيـــوان المنـــوي. وكـــان بوفـــون (Buffon) عـــالم الطبيعيـــات الكبـــير ينتمـــي إلى أشـــياع فكـــرة البويضـــة ، وكـــان مـــن بيـــنهم أيضـــاً بـــوني (Bonnet) الـــذي كـــان يـــدافع عـــن نظريـــة انـــدماج البـــذور القائلـــة بـــأن مبـــيض حـــواء ، أو الجـــنس البشـــري ، كـــان يحتـــوي علـــى بـــذور كـــل الكائنـــات الإنســـانية متداخلـــة كـــل في الآخـــر. وقـــد حظـــي هـــذا الفـــرض بـــبعض التأيـــدات في القـــرن الثامن عشر.

عـرف النـاس القـرآن بمـا يربـو علـى ألـف عـام مـن قبـل هـذا العصـر الـذي كانـت المعتقـــدات الوهميـــة تســـوده. إن مقـــولات القـــرآن عـــن التناســـل البشـــري تعـــبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفتها ...

المبحث الرابع : موازنة بين القرآن والعهد القديم والمعارف الحديثة

. رواية الطوفان نموذجاً

قـــادت دراســـة روايـــة الطوفـــان علـــى حســـب العهـــد القـــديم إلى الملاحظـــات التالية :

لـــيس في التـــوراة روايـــة واحـــدة فقـــط عـــن الطوفـــان. بـــل هنـــاك روايتـــان ، ولكنهما حررتا في عصور مختلفة :

١ . الرواية اليهودية التي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

٢ ـــ الروايـــة الكهنوتيـــة الـــتي ترجـــع إلى القـــرن الســـادس قبـــل المـــيلاد ، والـــتي أخذت هذا الاسم لأنها مؤلف لكهنة ذلك العصر.

إن روايـــة الطوفـــان في العهـــد القـــديم غـــير مقبولـــة في إطارهـــا العـــام ، وذلـــك لسببين يتضحان على ضوء المعارف الحديثة :

(أ) يعطي العهد القديم للطوفان طابعاً عالمياً.

(ب) وعلى حين لاتعطي فقرات المصدر اليهووي للطوفان تاريخاً ، تحدد الرواية الكهنوتية زمن الطوفان في عصر لم يكن من الممكن أن تقع به كارثة من هذا النوع.

والحجج التي يستند إليها هذا الحكم هي ما يلي :

تحدد الرواية الكهنوتية أن الطوفان قد حدث عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام ، غير أنه من المعروف ، بحسب الأنساب المذكورة في الإصحاح الخامس من سفر التكوين أن نوحاً قد ولد بعد آدم بـ ١٠٥٦ عاماً (وهذه الأنساب كهنوتية المصدر هي أيضاً ، وقد ذكرناها في الجزء الأول من هذا الكتاب). وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم. ومن ناحية أخرى فجدول نسب إبراهيم الذي يعطيه سفر التكوين (١١ ، ١٠ ــ ٣٢) ، على حسب نفس المصدر ، يسمح بتقدير أن إبراهيم قد ولد بعد الطوفان بـ ٢٩٢ عاماً. ولما كنا نعرف أن إبراهيم كان يعيش في حوالي ١٨٥٠ ق.م. فإن زمن الطوفان يتحدد إذن ، على حسب التوراة ، بـ ٢١ أو ٢٢ قرناً قبل المسيح. وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة ، وذلك في عصر كان الافتقاد إلى المعلومات الانسانية في هذا الموضوع يجعل معطيات هذا التسلسل التاريخي للأحداث مقبولة بلاجدال لدى قرائها [1] ــ

(١) منذ أن حصل المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الأحداث في

حيث إنه لم يكن هناك أيضاً أي حجج مضادة.

كيف يمكن اليوم تصور أن كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الأرض (باستثناء ركاب السفينة) في القرن ٢١ أو ٢٢ ق.م. ؟ ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الأرض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها إلى الأجيال التالية. وبالنسبة لمصر ، على سبيل المثال ، كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى. وبالنظر إلى مانعرف عن تاريخ هذا العصر فإنه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات.

وعلى ذلك ، ومن وجهة النظر التاريخية ، فيمكن تأكيد أن رواية الطوفان ، مثلما تقدمها التوراة ، تتناقض بشكل واضح مع المعارف الحديثة. إن وجود روايتين هو دليل حاسم على تعديل البشر للكتب المقدسة.

رواية الطوفان في القرآن :

يقدم القرآن رواية شاملة مختلفة ، ولاتثير أي نقد من وجهة النظر التاريخية.

لايقدم القرآن عن الطوفان رواية مستمرة ، فهناك سور عديدة تتحدث عن العقاب الذي وقع على شعب نوح ، أما أكثر الروايات كمالاً فهي في سورة

العصور القديمة ، ومنذ كفت هذه الحوليات الوهمية لكتاب العهد القديم الكهنوتيين عن أن تكون موضع تصديق ، سارع المسئولون بحذفها من كتب التوراة. لكن المعلقين المحدثين على هذه الأنساب التي احتفظ بها لايلفتون انتباه قراء كتب التعليم الديني العامة نحو الأخطاء التي تحتويها.

هـود (١١) الآيـات مـن ٢٥ إلى ٤٩ ، أمـا سـورة نـوح (٧١) فهـي تـذكر بشـكل خـاص موعظـة نـوح ، كمـا تفعـل ذلـك الآيـات مـن ١٠٥ إلى ١١٥ مـن سـورة الشعراء (٢٦).

ولكـن قبـل أن ننظـر في مجـرى الأحـداث بـالمعنى الحقيقـي علينـا أن نحـدد الطوفـان مثلمـا يخـبر بـه القـرآن بالنسـبة إلى السـياق العـام للعقوبـات الـتي أنزلهـا الله على جماعات أذنبت بشكل خطير بتعديها على وصايا الله.

علـى حـين تتحـدث التـوراة عـن طوفـان عـالمي لعقـاب كـل البشـرية الكـافرة ، يشـير القـرآن علـى العكـس ، إلى عقوبـات عديـدة نزلـت علـى جماعـات محـددة جيداً.

تشـير إلى ذلـك هـذه الآيـات : ﴿ **وَلَقَـدْ آتَيْنَـا مُوسَـى الْكِتَـابَ وَجَعَلْنَـا مَعَـهُ أَخَـاهُ هَـارُونَ وَزِيـرًا * فَقُلْنَـا اذْهَبَـا إِلَـى الْقَـوْمِ الَّـذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَـا فَـدَمَّرْنَاهُمْ تَـدْمِيرًا * وَقَـوْمَ نُـوحٍ لَّمَّـا كَـذَّبُوا الرُّسُـلَ أَغْرَقْنَـاهُمْ وَجَعَلْنَـاهُمْ لِلنَّـاسِ آيَـةً وَأَعْتَـدْنَا لِلظَّـالِمِينَ عَـذَابًا أَلِيمًـا * وَعَـادًا وَثَمُـودَ وَأَصْـحَابَ الـرَّسِّ وَقُرُونًـا بَـيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا** ﴾ [1].

أمـا سـورة الأعـراف [2] فتقـدم العقوبـات الـتي نزلـت علـى شـعب نـوح وعـاد وثمود وسدوم ومدين كل على حدة.

وعلـى ذلـك فـالقرآن يقـدم كارثـة الطوفـان باعتبارهـا عقابـاً نـزل بشـكل خاص على شعب نوح ، وهذا يشكل الفرق الأساسي الأول بين الروايتين.

---

(١) سورة الفرقان : ٢٥ / ٣٥ . ٣٩.

(٢) سورة الأعراف : ٧ / ٥٩ . ٩٣.

أما الفرق الجوهري الثاني فهو أن القرآن ، على عكس التوراة ، لايحدد زمن الطوفان ، ولايعطي أية إشارة عن مدة الكارثة نفسها.

وأما أسباب السيل فهي نفسها تقريباً في الروايتين ، وتذكر الرواية الكهنوتية للتوراة (التكوين ٧ ، ١١) سببين مقترنين. تقول : « في ذلك اليوم انبثقت عيون الماء من الهوة السحيقة ، وانفتحت هواويس السماء. » أما القرآن فيحدد في الآيتين ما يلي : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [1].

والقرآن يحدد بشكل صريح محتوى سفينة نوح ، فقد أعطى الله أمراً لنوح بأن يضع في السفينة كل ما سيعيش بعد الطوفان ، وقد أنجز نوح هذا الأمر بأمانة : ﴿ احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [2].

ومن سبق عليه القول هنا ، أي من استبعد من الأسرة ، فهو ابن ملعون لنوح ، تقول عنه الآيتان ٤٥ و ٤٦ من نفس هذه السورة إن تضرع نوح لربه لم يغيّر من الأمر شيئاً ، والقرآن يشير إلى من يوجد على السفينة ، بالإضافة إلى الأسرة التي قطع منها هذا الابن الملعون ، وهم قليلون ممن آمنوا بالله.

ولاتشير التوراة إلى هؤلاء من بين ركاب السفينة. إن التوراة ، في الواقع ، تقدم ثلاث روايات عن محتوى السفينة.

ــ على حسب الرواية الكهنوتية : نوح واسرته دون أي استثناء وزوج من

---

(١) القمر : ٥٤ / ١١ . ١٢.

(٢) سورة هود : ١١ / ٤٠.

كل نوع.

ـ علـى حسـب الروايـة اليهوويـة : هنـاك تمييـز مـن ناحيـة بـين الحيوانـات الطـاهرة والطيـور وبـين الحيوانـات النجسـة مـن ناحيـة أخـرى (والسـفينة تحتـوي علـى سـبعة [١] أزواج مـن الفئـة الأولى ، ذكـر وأنثـى ، وعلـى زوج واحـد فقـط مـن الفئة الثانية).

ـ علـى حسـب روايـات يهوويـة معدلـة (التكـوين ٧ ، ٨) : زوج مـن كـل نـوع طاهر أو نجس.

أمـا روايـة الطوفـان الفعلـي الـتي تحتـوي عليهـا سـورة هـود (١١) الآيـات مـن ٤١ إلى ٤٩ ، وسـورة المؤمنـون (٢٣) ، الآيـات مـن ٢٣ إلى ٣٠ وروايـة التـوراة فـلا تقدمان اختلافات ذات دلالة خاصة.

وتقـول التـوراة بـأن المكـان الـذي جنحـت إليـه السـفينة نحـو جبـل أرارات (التكـوين ٨ ، ٤) أمـا القـرآن فيقـول إنـه ﴿ **الْجُـودِيِّ** ﴾ [٢]. وهـذا الجبـل هـو قمـة جبـال أرارات بأرمينيـا ، ولكـن لاشـيء يثبـت أن البشـر لم يغـيروا مـن الأسمـاء للتوفيـق بـين الـروايتين. ويؤكـد ر.بلاشـير (Blachere) هـذا : وفي رأي هـذا الكاتـب أن هنـاك كتلـة جبليـة بهـذا الاسـم بـالجزيرة العربيـة. ولكـن ربمـا كـان اتفـاق الأسماء أمراً مصطنعاً.

في نهايـة الأمـر ، فالاختلافـات بـين روايـات القـرآن وروايـات التـوراة موجـودة ، وهـي هامـة. وبعـض هـذه الاختلافـات يفلـت مـن أي فحـص نقـدي. إذ

---

(١) ألم يكن العدد ٧ يعني في اللغات السامية في ذلك العصر كثرة غير محددة ؟

(٢) سورة هود : ١١ / ٤٤.

هنـــاك افتقـــاد للمعطيـــات الموضـــوعية. ولكـــن إذا كـــان بالإمكـــان التحقـــق مـــن معطيـــات الكتـــب المقدســـة ، وذلـــك بمعونـــة معطيـــات أكيـــدة ، يصـــبح واضـــحاً تمـــام الوضـــوح عـــدم إمكانيـــة اتفـــاق روايـــة التـــوراة ــ في تقـــديمها للطوفـــان بزمنـــه ومدتـــه ــ مـــع مكتســـبات المعرفـــة الحديثـــة. وعلـــى العكـــس مـــن ذلـــك فـــإن روايـــة القـــرآن تتضـــح خاليـــة مـــن أي عنصـــر مثـــير للنقـــد الموضـــوعي. فمـــن عصـــر رواة التـــوراة إلى عصـــر تنزيـــل القـــرآن هـــل حصـــل النـــاس علـــى معلومـــات مـــن شـــأنها أن تلقـــى نـــوراً علـــى حـــدث مثـــل هـــذا ؟ بالتأكيـــد لا ، فمـــن العهـــد القـــديم إلى القـــرآن كانـــت الوثيقـــة الوحيـــدة الـــتي في حـــوزة النـــاس عـــن هـــذه الحكايـــة القديمـــة هـــي التـــوراة بالتحديـــد. وإذا لم تكـــن العوامـــل الإنســـانية تســـتطيع أن تشـــرح التغـــيرات الـــتي طـــرأت علـــى الروايـــات لتتجـــه بهـــا إلى التوافـــق مـــع المعـــارف الحديثـــة ، فيجـــب أن نقبـــل شـــرحاً آخـــر ، وهـــو أن هنـــاك تنـــزيلاً مـــن الله قـــد جـــاء بعـــد التنزيـــل الـــذي تحتـــوي التـــوراة عليه.

(٣)

الموقف من الاسلام

وثيقة الفاتكان الحديثة ، والخاتمة

كشـــف العديـــد مـــن المستشـــرقين ، المحـــدثين والمعاصـــرين ، عـــن أن الأحكـــام الـــتي كـــان يصـــدرها الغـــرب ، ممـــثلاً برجـــال الـــدين ورجـــال الفكـــر ورجـــال السياســـة ، إنمـــا هـــي أحكـــام مغلوطـــة ، ناتجـــة عـــن الجهـــل بالاســـلام حينـــاً ، وعـــن العصـــبية حينـــاً آخـر ، ولقـد كـان كـل شـكل مـن أشـكال معـاداة الاسـلام ، حـتى وإن صـدر مـن أعـداء صـــريحين للكنيســـة ، فإنـــه كـــان يُتلقـــى في فـــترة مـــا بتأييـــد حـــار حـــتى مـــن كبـــار

شخصيات الكنيسة ، فالبابا نينوا الرابع عشر ، الذي اشتهر بكونه أكبر حبر في القرن الثامن عشر ، لم يتردد في مباركة تولير ، لأنه أهداه مسرحيته التراجيدية « محمد أو التعصّب » ! وهي مسرحية هجائية فجة يستطيع أن يكتب مثلها ، في أي موضوع ، أي محترف كتابة سيّء الضمير ، وبالرغم من ذلك فقد لقيت حينما سمح لها بأن تسجّل في قائمة ملفات مسرح الكوميدي فرانسيز. لكن هذه النزعة أخذت تجد ما يقابلها ، ويقلل من نشاطها ، عندما أدرك الكثير من الغربيين حقيقة أن الأديان اليوم لم تعد منطوية على نفسها ، وعندما ظهرت ونشطت فكرة التفاهم بين الأديان ، وتعد أهم مبادرة في تعزيز هذه الظاهرة الأخيرة هي تلك التي صدرت عن أعلى مستويات المناصب الكنسية الرسمية ، حيث اجتهد مسيحيون كاثوليك في إرساء أوامر الصلة مع المسلمين ، ومكافحة عدم الفهم والتعصب غير المبرر ضده ، ومحاولة تصحيح وجهات النظر غير الصحيحة المنتشرة عن الاسلام.

تلك هي الوثيقة الصادرة عن (سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين) تحت عنوان : « توجيهات لاقامة حوار بين المسيحيين والمسلمين ».

وقد تضمنت هذه الوثيقة ــ المؤلفة من مئة وخمسين صفحة ــ توجيهات فائقة الأهمية في هذا المضمار ، فلنقرأ شيئاً من نصوصها :

ــ تطالب هذه التوجيهات أولاً : « بمراجعة مواقفنا إزاء الاسلام ، وبنقد أحكامنا المسبقة ».

ــ وترى بروح موضوعية أن المقدمة الجادة والسليمة لهذه الخطوة لابد

أن تبدأ من النفس : « علينا أن نهتم أولاً بأن نغيّر تدريجياً من عقلية إخواننا المسيحيين ، فذلك يهم قبل كل شيء ».

ـ ويجب إلى جانب ذلك : « التخلي عن الصورة البالية التي ورّثنا الماضي إياها ، أو شوّهتها الفريات والأحكام المسبقة ».

ـ ولاثبات الصدق في هذه المحاولة تؤكد التوجيهات على أنه : « يجب الاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب المسيحي في حق المسلمين ».

وتحت عنوان : « أن نتحرر من أكثر أحكامنا المسبقة جسامة » وجه أصحاب هذه الوثيقة الدعوة الآتية إلى المسيحيين.

ـ « هنا علينا أن نتطهر وبعمق من عقلياتنا ، نقول ذلك ونحن نفكر بالذات في بعض الأحكام المجهزة التي كثيراً ما نصدرها باستخفاف على الاسلام ».

ـ « إن المسلمين الذين يؤمنون بابراهيم يعبدون معنا إلهاً واحداً هو الرحيم ، ديان البشر في اليوم الآخر ... ».

وتتناول الوثيقة أحكاماً خاطئة صادرة من الغرب المسيحي على الاسلام :

ـ فـ « جبرية الاسلام ، ذلك الحكم المسبق واسع الانتشار ، تدرسه الوثيقة وتستعين بذكر الآيات من القرآن لتعارضه بمفهوم مسؤولية الانسان الذي سيحكم عليه بما فعل ، وتبيّن خطأ المفهوم القائل بحرفية القواعد الاسلامية ، وتعارضه بالمفهوم القائل بالاخلاص في الايمان ، وذلك يذكر ماظل يجهله الغربيون عن عبارتي القرآن : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [1] و ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

---

(١) سورة البقرة : ٢ / ٢٥٦.

فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [١].

ـ وتعارض الوثيقة الفكرة الشائعة عن الاسلام كدين الخوف ، بالاسلام دين الحب ، حب الانسان المستأصل في الايمان بالله.

ـ وهي أيضاً تدحض افكاراً خاطئة روّجت ضد الاسلام ، كفكرة عدم كفاية الأخلاق الاسلامية ، وفكرة التعصب في الاسلام. وتعلقت على الاخيرة بالقول : « الواقع أن الاسلام عبر التاريخ لم يكن أكثر تعصباً من المدينة المسيحية عندما كانت المسيحية تكتسب بشكل أو بآخر في هذه المدينة قيمة سياسية ».

كما تدحض الفكرة الخاطئة عن الجهاد في الاسلام ، فتقول : « ليس الجهاد مطلقاً ما يعرف بالـ (Kherem) (الابادة) في التوراة ، فالجهاد لايسعى إلى الابادة ، بل يسعى لأن يمد إلى مناطق جديدة حقوق الله والانسان » وأما أعمال العنف التي تصاحب الحروب « فلقد كانت أعمال العنف في حروب الجهاد في الماضي تخضع عموماً لقوانين الحرب. وفي عصر الحروب الصليبية لم يكن المسلمون دائماً هم الذي ارتكبوا أكبر المذابح ».

ـ وتعالج الوثيقة أخيراً الحكم القائل بأن الاسلام دين جامد يبقي أتباعه في عصر وسيط بائد ، وهي تقارن مواقف مماثلة لوحظت في بعض البلاد المسيحية ، وتعلن : « إننا نجد في الفكر الاسلامي مبدأً لامكانية تطور المجتمع المدني » [٢].

---

(١) سورة الحج : ٢٢ / ٧٨.

(٢) موريس بوكاي : ١٤١ . ١٤٥.

إن لمثل هذه الوثيقة أهمية فائقة في تصحيح أخطاء القرون المتراكمة ، وفي فتح الباب واسعة للتعارف والحوار بين الأديان ، هذا الأمر الذي كان قد طرقه الاسلام منذ ألف وأربعمائة سنة ، لا في وثيقة لسلطة دينية أو سياسية في مرحلة ما ، بل في القرآن الكريم نفسه : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ [(١)] ، ولكن كم هم قليلون حقاً ـ ما يقول بوكاي نفسه ـ الغربيون الذين عرفوا تلك المواقف الجديدة التي اتخذتها أعلى سلطات الكنيسة الكاثوليكية ؟ [(٢)].

فهذه السياسة التي تنتهجها الدول الغربية المسيحية ضد الاسلام ، منذ عهد نهضتها وحتى يومنا هذا ، شاهدة على أنها لم تعر أدنى أهمية لمثل هذه الوثيقة ، وأنها بقيت منغمسة في أوهامها وأخطائها التي راكمتها القرون من خلال تلك الأحكام المسبقة والجاهزة ضد الاسلام ، فلم يعد زرع الكيان الصهيوني ظلماً وعدواناً في قلب العالم الاسلامي هو المؤثر الوحيد على عدوانية فجّة ضد الاسلام ، خصوصاً بعد أن ركبت السياسة الامريكية ــ الانجليزية المعاصرة موجتها الاخيرة في محاربة الاسلام في داخل بلدان المسلمين ، لابالضغوط الاقتصادية والسياسية وحدها ، بل بالغزو العسكري والاحتلال الجديد ، الذي من شأنه أن يعيد تكريس العدوانية مرة أُخرى ، لاسيما مع ظهور ما يصحبه من هجوم إعلامي وحملات تثقيفية واسعة تعمق هذه الروح ، وتجعل من الاسلام عدواً مخيفاً يهدد أمن المسيحيين في أمريكا

---

(١) سورة آل عمران : ٣ / ٦٤.

(٢) موريس بوكاي : ١٤٥.

وأوربا !

فلمـــاذا يكـــون الأمـــن والاســـتقلال حقـــاً للامريكـــي في وطنـــه وفي العـــالم بأســـره ، ولايكـــون حقـــاً للمســـلم في وطنـــه وحـــدوده الجغرافيـــة ، بـــل في مســـكنه ومحل عمله ؟

إنهـــا الـــروح العنصـــرية ، والعدوانيـــة الـــتي خلقتهـــا تلـــك الأحكـــام الخاطئـــة والمجحفـــة ، والـــتي كـــان مـــن ورائهـــا دائمـــاً انـــاس عـــدوانيون في طبيعـــتهم ، مرضـــى القلـــوب ، أنـــانيون بـــإفراط ، يـــرون الحيـــاة حقـــاً لهـــم وحـــدهم دون ســـواهم. وســـيكون مصيرهم على عكس ما يسعون إليه ، وعاقبتهم الخيبة والخسران.

خاتمة عامة :

في نهايـــة هـــذا الاســـتعراض الســـريع تبـــدت عـــدة نتـــائج بالغـــة الأهميـــة ، نمـــر عليها مروراً سريعاً :

ظهـــر أن العهـــد القـــديم (التـــوراة) يتـــألف مـــن مجموعـــة مـــن المؤلفـــات ، أنتجـــت علـــى مـــدى تســـعة قـــرون تقريبـــاً ، وهـــو يشـــكل مجموعـــة متنفـــافرة جـــداً مـــن النصـــوص ، حـــتى في أمهـــات العقيـــدة التوحيديـــة ، عـــدّل البشـــر مـــن عناصـــرها عـــبر السنين ، بحيث إن التعرف على مصادر هذه النصوص اليوم أمر عسير جداً.

وظهـــر أيضـــاً أن الأناجيـــل الأربعـــة لم تكتـــب بـــأقلام شـــهود عيـــان للأمـــور الـــتي أخـــبروا عنهـــا ، إنهـــا ببســـاطة تعبـــير المتحـــدثين باســـم الطوائـــف اليهوديـــة المســـيحية المختلفـــة عمـــا احتفظـــت بـــه مـــن معلومـــات عـــن حيـــاة المســـيح العامـــة ، وذلـــك علـــى شـــكل أقـــوال متوارثـــة ، شـــفهية أو مكتوبـــة ، اختلفـــت اليـــوم ، بعـــد أن احتلـــت دوراً وسطاً بين التراث الشفهي والنصوص النهائية.

لقد كانت النتيجة الحتمية لذلك هو التناقضات والتعارضات التي قدمنا نماذج منها ، كما ظهر أيضاً أن لتنزيل القرآن وتدوينه تاريخاً يختلف كل الاختلاف عما كان للعهد القديم وللأناجيل ، فكان القرآن فور تنزيله كان النبي والمؤمنون من حوله يتلونه عن ظهر قلب ، وكان الكتبة منهم يدونونه ، ويحتفضون بما دونوه عندهم ، ويجمعونه إلى بعضه باشراف من النبي ﷺ ويراجعونه عليه. وظل الامر هكذا حتى وفاة النبي ﷺ .

وهكذا فإن القرآن الكريم لايخلو فقط من متناقضات الرواية ، وهي السمة البارزة في مختلف صياغات العهدين ، بل احتفظ باعجازه في وجوهه المتعددة كما تحدث عنها القرآن نفسه وقت نزوله.

وإضافة إلى هذا فقد امتاز على العهدين بالتوافق التام مع معطيات العلوم الحديثة.

وهو يحتوي أيضاً على مقولات متعددة ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر النبي محمد ﷺ قد استطاع أن يؤلفها. وهكذا سمحت المعارف العلمية الحديثة بفهم بعض الآيات القرآنية التي ليس لها تفسير واضح عند المتقدمين الذين لم تظهر هذه المعارف في أزمنتهم ، ولم يكونوا على إلمام بها.

وتبين أيضاً أن مقارنة العديد من روايات التوراة مع روايات نفس الموضوعات في القرآن تبرز الفروق الاساسية بين دعاوى التوراة غير المقبولة علمياً وبين مقولات القرآن التي تتوافق تماماً مع معطيات العلم الحديث.

وبهذا نخلص إلى أن القرآن الكريم ، بخلاف العهدين القديم والجديد ، هو الكتاب السماوي الوحيد الذي احتفظ بوحي السماء نصاً ومضموناً دون تبديل أو نقيصة أو تحريف ، ليكون هو بالتالي المصدر الأساسي والأصلح لمعرفة رسالات السماء إلى البشر.

المحتويات

كلمة المركز ٥

مقدمة المؤلّف ٩

الفصل الأوّل : معالم أساسية في التوراة ١٣

المبحث الأول : من صور الوثنية في التوراة ١٣

١ . اليوم السابع ١٣

٢ . شجرة الجنّة ١٤

٣ . مرة أخرى يتكرر المعنى نفسه ١٩

٤ . يعقوب يصارع الله !! ٢٠

٥ . الله في وسط العليقة !! ٢١

٦ . بنو إسرائيل يرون الله !! ٢٢

٧ . الله يتراجع عن قتل موسى !! ٢٣

٨ . يحارب ويحتار !! ٢٤

المبحث الثاني : الأنبياء في التوراة ٢٤

١ . هارون بين التوراة والقرآن ٢٤

٢ . من هو الذبيح ؟ ٢٦

٣ . لوط وابنتاه ٢٧

٤ . كيف أخذ يعقوب البركة من أبيه ؟ ٢٨

٥ . بيت داود عليه‌السلام ٣٠

٦ . إرهاب موسىٰ ويوشع عليهماالسلام ٣٢

٧ . الحاضر والغائب في التوراة ٣٣

المبحث الثالث : التوراة والتحريف ٣٤

الفقرة الأولىٰ : الامكان التاريخي للتحريف ٣٦

حلقيا يعثر على التوراة ٣٩
أخطاء في توراة حلقيا ٤٠
شواهد اخرىٰ على التحريف ٤٠
الفقرة الثانية : تاريخ التوراة ٤٢
من هو مؤلف العهد القديم ؟ ٤٢
الأصول الأولى للتوراة ٤٣
نتيجة البحث باختصار ٤٤
الفصل الثاني : معالم في الانجيل ٤٥
١ . تاريخ الاناجيل ٤٥
من هو متّى ؟ ٤٦
من هو لوقا صاحب الانجيل الثالث ؟ ٤٨
ماذا قبل الانجيل الأول ؟ ٤٩
ماذا أنجز بولص ؟ ٥٢
٢ . اختلافات الاناجيل ٥٣
خلاصة القول في هذه الملاحظات ٥٨
٣ . إشكاليات عقائدية في الاناجيل الاربعة ٦٠
الاناجيل الاربعة والتوحيد ٦٠
أولاً : « ابن الله المخلّص ! » ٦١
١ . ان عيسىٰ ولد من عذراء دون «واسطة» أب ٦٢
٢ . ان عيسىٰ أظهر معجزات ٦٣
٣ . ان عيسىٰ ذو شخصية لانظير لها ٦٣
٤ . ان عيسىٰ قام من بعد الموت ٦٣
مع مصطلح « ابن الله » ٦٣
ثانياً : التثليث ٦٥
فكرة التوحيد ٦٥

كيف استقر « التثليث » ؟ ٦٧
ثالثاً : عقيدة الغفران ٧٠
رابعاً : من الختان إلى التعميد ٧٢
٤ . وأخيراً . ماذا عن الانجيل الخامس ٧٣
« إنجيل برنابا » ٧٣
من هو برنابا ؟ ٧٤
خلاصة العقائد والموقف من بولص في انجيل برنابا ٧٥
إنجيل برنابا وذكر الرسول محمد ﷺ ٧٥
الفصل الثالث : معالم في القرآن الكريم ٧٥
(١) تاريخ القرآن ٧٩
من أدلة تدوين القرآن في عهد الرسول ﷺ ٨١
(٢) القرآن والعلم الحديث ٨٧
نظرة مقارنة ٨٧
المبحث الأوّل : خلق السموات والأرض ٨٨
نقاط الاختلاف والتجانس مع رواية التوراة ٨٨
عملية تشكل الكون الأساسية وانتهاؤها إلى تكوين العوالم ٩٤
المادة الكونية المنتشرة بين النجوم ٩٨
مقابلة مع المعطيات القرآنية عن الخلق ٩٩
المبحث الثاني : علم الفلك في القرآن ١٠١
(أ) تأملات عامة في السماء ١٠٣
(ب) طبيعة الأجرام السماوية : الشمس والقمر ١٠٦
(ح) البنية السماوية ١٠٧
وجود مدارين للقمر والشمس ١٠٨
الإشارة إلى تنقل القمر والشمس في الفضاء بحركة خاصة ١٠٩
تعاقب النهار والليل ١١١

في مقارنة الأديان (نظرة سريعة في التوراة والانجيل والقرآن) ١٤٦
(د) تطور العالم السماوي ١١٤
توسع الكون ١١٧
المبحث الثالث : أصل الحياة وتناسل الانسان ١١٨
(أ) أصل الحياة ١١٨
(ب) التناسل الإنساني في القرآن ١٢٠
١ . تمام الإخصاب بفضل كمية من سائل ضئيلة جداً ١٢١
٢ . طبيعة السائل المخصب ١٢٢
٣ . تعشش البويضة في جهاز الأنثى التناسلي ١٢٥
٤ . تطور الجنين في الرحم ١٢٦
المبحث الرابع : موازنة بين القرآن والعهد القديم
والمعارف الحديثة ١٢٩
رواية الطوفان نموذجاً ١٢٩
رواية الطوفان في القرآن ١٣١
(٣) الموقف من الاسلام ١٣٥
وثيقة الفاتكان الحديثة ، والخاتمة ١٣٥
خاتمة عامة ١٤٠
المحتويات **١٤٣**